مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

ربيع الأول 1441هـ – نوفمبر 2019م

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الشعراء الذين أثّرت الثقافة العربية في قصائدهم إيفلين دوجلاس (Douglas Evelyn John)، وهو اسم مستعار لجون إيفلين بارلاس (Barlas 1860-1914) كاتب مسرحي وشاعر وصحفي أسكتلندي. كان شخصية بارزة في الأوساط الأدبية الفيكتورية في أواخر القرن التاسع عشر. نَشَر بارلاس ثمانية مُجلّدات من الشعر والدراما الشعرية، إضافة لمساهمته بمقالات للمجلة الاشتراكية المؤثرة كومنويل (Commonweal). ارتبط بارلاس شعريا بـ«مدرسة الشعراء الرمزيين»، وهي حركة أدبية أعلت القيم الجمالية على القضايا الأخلاقية والمعنوية للحياة اليومية.. ربطته صداقات وثيقة مع أوسكار وايلد، وجون ديفيدسون، وغيرهما من الكتاب المهمين في عصره.. نترجم له هذه القصيدة التي تعكس تأثره بالفروسية العربية:

فارس الخُوذة الذهبية

أمْتَطي جوادًا عَربيًا
يَعدو بعيدًا كالإعْصار؛
ورُمْحي الفضّيُّ يلمعُ كالبرق،
وسَيْفي كشهاب ثاقب؛
وترْسي كالشّمس في رابعة النّهار،
وفي لِفاع خُوذتي غُصنٌ من الدَّرْدار
وتُسمعُ التهاليلُ حينَ يُنادي البشيرُ
هذا فارسُ الخُوذة الذهبية

لا أرتدي قُفّازًا، ولا وِشَاحًا منسوجًا في بلادِ فارس؛
كي تعشقَني النّساءُ،
لكنّهُنّ يَعْرِفْنَ حَدَّ سَيفي الفضيّ،
والذهبَ الخالصَ على دِرْعي، و..
والياقوتَ النفيسَ في تاجي،
حينَ تُشعُّ كضوءِ القَمَر،
وحينَ تتلهّفُ الجماهيرُ لرُؤيتي، وأنا يَخبُّ بي فَرسي الأغَرُّ،
وتَهْتِفُ: «هذا فارسُ الخُوذة الذهبية».

أقِفُ على الحَلْبة مِثْلَ صَقْر
أو طائرٍ كاسر
ثُمّ فجأةً أنقضُّ كنَيْزَك
وأختَطِفُ الخصمَ بعيدًا؛
وحينَ تتكسّرُ الرِّماحُ في المهامِ الخاطفة،
أغشى الوَغى وأحْمِل على الأعداء،
وأسيادُ الميدان يتخلّونَ عن قِلاعِهم المُحَصّنة
لفارسِ الخُوذة الذهبية.

أجتازُ العالَمَ مِثْلَ عاصفةٍ هوجاءَ
وأُجَنْدِلُ الطُّغاةَ؛
من أرضٍ إلى أرضٍ طلبتُ النِّزَالَ
وحَطّمتُ الصُّلبانَ والتّيجانَ،
وجُبْتُ الآفاقَ حاسرًا مِنْ أيّ قِناعٍ صَفيق
لا أحَدَ يَعْرِفُ اسمي،
ولكنّهم تُزلزلُهم شُهْرتي بـ«فارسِ الخُوذة الذهبية».
لا أحَدَ يَعْرِفُ صَوْتي،
ولا مِنْ أيّ أرضٍ أتيتُ،
ولكنّي أحْمِلُ قضاءَ اللهِ وقدَرَه
عنيدًا لا أعرِفُ الصّفْحَ؛
في عنفوانٍ صامتٍ كالجائحة،
أجتاحُ كُلَّ الدنيا،
كطاعونِ مِنَ الجَبَروت،
أنا، فارسُ الخُوذة الذهبية.
إنما يترنّحُ على رأسي الدمُ واليأس،
وسَيْفي لا يَعرِفُ الغِمْدَ،
لكنْ تحت خُوذتي
وجْهُ مَلاكٍ مُبتسم.
أُواصِلُ مَساري بقُوّة غاشمة،
وأُنْجِزُ رسالتي المُعْلنة.
ولكنّ الحُبَّ له عَرْشٌ في قلبٍ مجهول
لفارسِ الخُوذة الذهبية.

hilalalhajri@hotmail.com

- الفلسفة الإسلامية واليهودية
- سارة سترومسا
- القدس مدينة السلام
- برونو فورتي
- الأسئلة الاقتصادية
- باسكال كومبيمال
- تأثير الثروة..
- أندرو التر
وجيفري شويروث
- الطاعون..
- أليكسي بايفسكي
وآنا هوروجايا
- بناء الثقة من جديد
- ريك بينكستن
- تقسيمات الطبقات الاجتماعية..
- لي تشيانغ
- النفاق الكبير..
- يُرغن تودنهوفر
- فتاة من كاتمندو
- كام سيمبسون
- قراءة مكيافيلي
- جون ماك كورميك
- ألف كتاب وكتاب
- شتيفان فايدنر

إصدارات عالمية جديدة

صفحة 23 و 24

الفلسفة الإسلامية واليهودية في الأندلس
سارة ستروسما

مُحمَّد الشيخ *

يطمحُ هذا الكتاب إلى أنْ يكون مروية شاملة تجمع أشتات ما تناثر من أنظار فلسفية لدى فلاسفة الأندلس ـ مسلمين ويهودا. وقد استغرق من مؤلفته عقدين من الزمن روت فيهما أفكارها من «آراء فطيرة» إلى «آراء خميرة»؛ إذ شرعت فيه بعد أن كان الفكر الفلسفي المشرقي قد استغرق اهتماماتها بالكامل إلى حدود عام ٢٠٠٠، لكن يعود الفضل إلى ابنتها راشيل التي لفتت عنايتها من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه. وقد سعى هذا الكتاب إلى أن يروي لنا ما سمته المؤلفة «الفكر التأملي» -الإسلامي والعبراني- عبر تطوره في شبه الجزيرة الإيبيرية فيما بين القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي والسادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. ويشير الاسمان الواردان في العنوان «الأندلس» و«السفارديم» [اليهود المنحدرون من إسبانيا والبرتغال]، إشارة وصل لا إشارة فصل، إلى الثقافتين الإسلامية واليهودية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وذلك في مروية واحدة شاملة.

ما كان هذا الكتاب يتناول تناولا حصريا وشموليا ونسقيا لتاريخ الفلسفة بالأندلس؛ إذ لا يدعي أنه يروم أن يستقصي آراء كل المفكرين ومجمل أعمالهم، كما لا يزعم أنه يسعى إلى تحليل كل أفكارهم الجوهرية.. لا ولا كان هذا الكتاب تاريخا فكريا شاملا للأندلس؛ بحيث يؤرخ هو للفكر الأندلسي منذ بدئه إلى ختمه... فيشمل الفلسفة الصوفية برمتها والفكر الشرعي بمجمله والفكر العلمي في معظمه.

إنما هذا الكتاب:

- أولا: سعي إلى مراجعة الصورة المرسومة عن الفكر الفلسفي الأندلسي، وذلك في إطار جديد تعتبره صاحبته «أشمل» و«أدمج... ».

- ثانيا؛ محاولة لاقتراح طريقة جديدة في سرد مروية الفلسفة الإسلامية والعبرانية بالأندلس تقوم على أنقاض المروية القديمة التي ينبغي في رأي المؤلفة تجديدها.

ومن بين مزايا هذا الكتاب أنه يذرع -ذهابا ومجيئا- مظانَّ الفلسفة الأندلسية؛ وذلك بالعودة إلى المصادر القديمة -تحقيقا- والاستئناس بالمراجع الحديثة -تدقيقا ووقوفا عند بعض مظاهر البلى التي أصابتها... وذلك بحكم ما تسميه المؤلفة أسوة بالتقليد الألماني «روح العصر»- إذ في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ركز الباحثون المحدثون على ما سموه -تعصبا- «العبقرية الإيبيرية» التي حرمت الأندلسيين -مسلمين ويهودا- من كل تميز، لكن هؤلاء الباحثين انتهوا من حيث لا يحتسبون -ويا للمفارقة- إلى التنبيه على أهمية هذا الفكر المراد إقصاؤه.

ومن مزايا هذا الكتاب أيضا أن المؤلفة -وهي محقة في ذلك لا شك عندي- سعت لإدماج الفكر اليهودي في مروية الفلسفة الأندلسية العامة، وهو الفكر الذي عادة ما تم تغافله في المدونة الرسمية للفكر الأندلسي... بينما تم بالمقابل التنبيه على الأثر الإسلامي في الفكر العبراني الأندلسي.

هذا.. ويتكون هذا الكتاب من خمسة فصول، فضلا عن مقدمة وكلمة شكر وخاتمة ولائحة مصادر ومراجع. وها هنا لمحة موجزة عما احتوته هذه الفصول:

الفصل الأول - البدايات

منظور هذا الفصل سرد بدايات الفكر الفلسفي بالأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وذلك بعد أن بدأت تتغير النظرة الأندلسية السنية المحافظة إلى الفلسفة والعلم. وفيه عرض للتجليات الأولى لما سمته المؤلفة «الفلسفة النسقية» بالأندلس ولسياقها السياسي؛ فكان أن تحدثت عن الكتب والمكتبات بالأندلس، مستندة في ذلك إلى رواية ابن صاعد -صاحب «طبقات الأمم» صاعد الأندلسي- عن مجهودات الخليفة الحكم في استيراد كتب الحكمة من المشرق، بما في ذلك كتب اليهود الدينية. ورغم الانتكاسة التي شكلها الحاجب أبي عامر من خلال احراق كتب العلم والفلسفة، فإن العناية بعلوم الأوائل ما انتهت حتى وإن توارت مؤقتا.

وتعرف المؤلفة بأول مفكري الأندلس المستقلين الصوفي المتفلسف ابن مسرة (٢٦٩ هـ/٣١٩ هـ)، مسلطة الضوء على مجمل فكره ومدرسته، مسترشدة بمخطوطات المؤلف وبما ورد عنه في كتب التراجم وغيرها من الشروح، منتهية إلى أن فكر الرجل كان ذا نفس صوفي مستملى من الأفلاطونية المحدثة. لكن جديدها هنا يكمُن في ربطها فكر ابن مسرة الباطني والقائم، في قسم منه، على تأويل حروف القرآن -الحروفية- بالفكر العبراني، مُوحية بأنَّ بعض تأملات ابن مسرة الباطنية في الحروف قد تكون مستملاة من كتب عبرية مشرقية قديمة، ومشددة على أن مسالك الأفكار بين المسلمين واليهود لم تتخذ طريقا واحدا... وتنهي فصلها بالحديث عما تعرضت له المسرية من اضطهاد بتعلة إيمانها بخلق القرآن على الطريقة الاعتزالية وادعائها اقتباس نور النبوة.

الفصل الثاني - المدارس الكلامية والفقهية

في بداية هذا الفصل، تلاحظ الباحثة أنه لئن هي ارتبطت المدارس الفلسفية في الغرب، منذ البدء الإغريقي، بأسماء فلاسفة. شأن الفيثاغورية والأفلاطونية والأرسطية...، فإنه في العالم الإسلامي ارتبطت بالدين وبالفكر الديني. ومن ثمَّ عد علم الكلام وعلم الفقه مكونين أساسيين في دراسة الفلسفة الإسلامية. ولهذا خصصت المؤلفة هذا الفصل للحديث عن المشهد الأندلسي في علم الكلام وعلوم الشرع، على الرغم من تعقد هذا المشهد واتساع آماده. ولما استحالت الإحاطة بكل المدارس الكلامية والشرعية بالأندلس، ركزت الباحثة على مدرستين: واحدة كلامية هي المدرسة الاعتزالية، والثانية فقهية هي المدرسة الظاهرية، كما شددت على أصداء هاتين المدرستين لدى معاصريهما من اليهود القرائين -الذين قبلوا بمرجعية الميشنا والتلمود والربانيين، الذين لم يقبلوا بهما عائدين إلى النص التوراتي وحده.

وفيما يخصُّ الاعتزال، لاحظت الباحثة أنَّه يكاد يكون من شدة ظهوره واختفائه معا أن يكون بمثابة الشبح. وعلى الرغم من هذه الشبحية التي لم تترك أثرا مكتوبا، فإن حضوره كان قويا في المذاهب اليهودية حتى وإن لم تعتبر نفسها بالأولى اعتزالية. وهو ما شَهد به ابن ميمون. ودليلها على ذلك ما كتبه يهودا اللاوي في الكتاب الخزري «كتاب الرد والدليل في الدين الذليل»، ويوسف بن صديق في كتابه «العالم الصغير». أكثر من هذا، عادة ما لجأ الربانيون إلى الاحتجاج بالأقوال الاعتزالية ضد القرائين.

أمَّا عن المدرسة الظاهرية، فإنَّ المؤلفة لا تشير إلى صلتها بيهود الأندلس، وإنما تكتفي بالإلماع إلى موقف هذه المدرسة من الدولة الموحدية ومن غريمتها الفقهية المالكية، كما تكتفي باستلهام بعض أفكار كاميليا أدانغ عن ظاهرية بغداد وظاهرية الأندلس وعن ابن حزم الأندلسي.

الفصل الثالث - النخب الفكرية

وترى المؤلفة أن فلاسفة الإسلام، شرقا وغربا، كانوا يتفلسفون في أمر الحياة؛ أي يسعون إلى تحقيق الكمال للنفس البشرية الفردية، لكنهم بحكم كونهم مثقفين،

كانوا مندمجين في مجتمعاتهم ثقافيا وسياسيا، إلا أنه كان اندماجا مع النخب لا اندماجا مع العوام. ولهذا تخصص هذا الفصل للحديث عن الوجه الاجتماعي لهؤلاء المثقفين، فتركز على المثقفين الأندلسيين (يهودا ونصارى ومسلمين) باعتبارهم حاشية السلاطين والأمراء، ومتقلدي الوزارة في العديد من الممالك، وباعتبارهم شعراء، وباعتبارهم فلاسفة، كما تنبه على مسار الفيلسوف في تكوينه وتربيته وتثقيفه وإجازته؛ أي على صناعة الفيلسوف الأندلسي من الطالب المبتدئ إلى الحكيم المنتهي. وتذكر بهذه المناسبة نماذج يهودية (أبو الفضل بن حسداي) وإسلامية (ابن باجه)، مشيرة إلى شعور الفيلسوف أحيانا بالغربة في مجتمعه . الفيلسوف النابتة وكيفية تدبير المتوحد (ابن باجه، ابن ميمون) . وإلى صحبة نموذجية أكانت جمعته مع أهل ملته (باروخ بن باليا ومايير بن مغاش من اليهود، وابن باجه وابن الإمام من المسلمين) أم بمن خالفه في الملة (أبو بكر بن الصائغ بن باجه وجعفر يوسف بن حسداي). وبالجملة، قامت الحياة الفلسفية الأندلسية على أنخاب مختارة، فكانت حياة خلوة مهما كان الفيلسوف مندمجا في الحياة السياسية (وزير) أو الاجتماعية (حكيم طبيب).

الفصل الرابع - فتوحات أفلاطونية محدثة

وتذهب الباحثة إلى أن الأفلاطونية المحدثة لعبت -في صورة رسائل الدعاة الإسماعيليين ورسائل فلاسفة إخوان الصفا- دورا كبيرا في العالم الإسلامي بعامة، وما كانت الأندلس في هذا بمبدع. وقد وصل تأثيرهما إلى الأندلس في القرن العاشر الميلادي. على أنه حدثت مقاومة لهما في الأندلس تمثلت في صراع الأندلسيين -السياسي والفقهي- ضد الجيران الفاطميين. وقد أوقفت الباحثة هذا الفصل لتحليل مسألة جاذبية الأفلاطونية المحدثة في الأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. فكان أن استقصت مسلكي الأفلاطونية المحدثة إلى الأندلس: تمثل المسلك الأول في رسائل الإسماعيلية، لا سيما منها رسائل الكرماني. وعلى خلاف ما يعتقد، لم تكن الحملة الأندلسية ضد الفلسفة موجهة، بالأولى، ضد المشائية (الأرسطية) وإنما كانت موجهة، بالأحرى، ضد الأفلاطونية المحدثة، كما دل على ذلك اضطهاد ابن مسرة الذي كانت فلسفته قد نهلت من الأوساط الإسماعيلية. وأما المسلك الثاني . مسلك رسائل إخوان الصفا . فقد ظهر أثره واضحا في ابن السيد البطليوسي. ثم تستقصي الباحثة أثر الأفلاطونية المحدثة على مفكري اليهود الأندلسيين، من خلال تتبع أثر كتاب «الحدائق» لابن البطليوسي على الفكر اليهودي الأندلسي وترجماته المتعددة إلى العبرية. ثم تعرج على الحديث عن المفكرين اليهود وكيف أنهم، وعلى خلاف المفكرين المسلمين، لم تنلهم مطاردة الريبة اتجاه الباطنية والمسرية، بل ازدهر لديهم قول فلسفي بعض إيحاءاته أفلاطونية محدثة وصوفية إسلامية: ابن فاقودة (صاحب كتاب «الهداية إلى

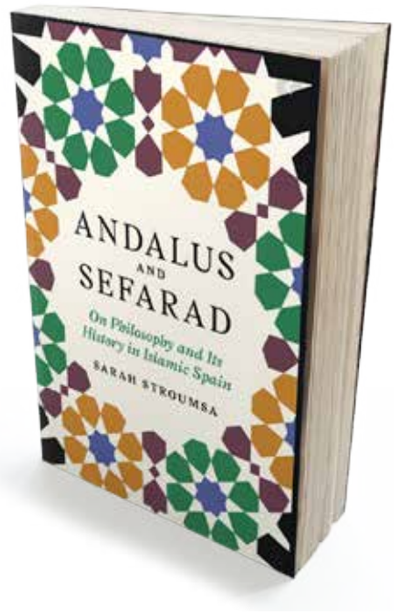

فرائض القلوب») والمحاسبي، سليمان بن جبيرول (صاحب كتاب «ينبوع الحياة») وتأثير الأفلاطونية المحدثة فيه، وإسحاق بن غياث وصلته بإسحاق الإسرائيلي، وابن عزرا في كتابه «مقالة الحديقة في معنى المجاز والحقيقة»، وابن عزرا الآخر ويوسف بن صديق... إذ في العديد من نصوصهم أثر بيِّن للقراءة الإسماعيلية الشيعية للأفلاطونية المحدثة... وفضلا عن الأفلاطونيين المحدثين، تفرد المؤلفة فقرات لمن أسمتهم «فلاسفة توفيقيين» ألفوا بين مذاهب فلسفية شتى، شأن أبي بكر بن طفيل وأبي الحسن بن يهودا اللاوي.

الفصل الخامس - السنية الأرسطية الجديدة وثورات الأندلس

وترى المؤلفة أنَّ القرن الأخير من حياة الفلسفة الأندلسية كان تراجيديًّا. وقد تمثل في تغلب ما سمته «النسخة الأرثوذكسية من الفلسفة الأرسطية» كردة فعل ضد هيمنة الأفلاطونية المحدثة؛ مما نجم عنه تقوية مرجعية أرسطو وشراحه. وقد بدا هذا الأمر بدوه الأول مع ابن باجه خلال حكم المرابطين، ثم سرعان ما تقوى مع ابن رشد وابن ميمون خلال حكم الموحدين... وقد تتبعت المؤلفة مسالك دخول الأرسطية إلى الأندلس، وطبيعة التربية والدعوى الموحدية، وصلة الموحدين بالفلسفة، وصلة الفلاسفة بالموحدين، كما أشارت إلى الثورات الأندلسية ضد ما سمته «أصولية الموحدين»... رابطة أحيانا بين ما يصعب الربط بينه: أصولية الموحدين وكليات ابن رشد الطبية! ثم وقفت عند سمات ما سمته «المدرسة الأرسطية الأندلسية»، وقد اعتبرتها نزعة «أصولية طبيعية»! والتي كانت أوبة إلى أقدم من الأفلاطونية المحدثة؛ أي إلى أرسطوطاليس.

لكنَّ سياسة الموحِّدين الدينية المتشددة ألجأت اليهود إلى إسبانيا المسيحية، فكنا أمام مبكري ممثلي الأرسطية في شبه الجزيرة الإيبيرية: ابراهام بن داود الذي ألف كتاب «العقيدة الرفيعة» في نقد الأفلاطونية المحدثة، لا سيما عند ابن جبيرول ويهودا اللاوي. وقد قارنت المؤلفة بين أرسطيته وأرسطية ابن رشد وابن ميمون، فوجدتها «أقل أصولية» و«أكثر انفتاحا على ابن سينا»، وهي ممتزجة بعناصر من الأفلاطونية المحدثة على الطريقة السينوية والسعدية (سعديا بن جاوون).

وعلى سبيل الختم.. تلك هي مروية الفلسفة الأندلسية -الإسلامية واليهودية- الجديدة التي روتها لنا سارة سترومسا: من البدايات الأولى مع المسرية إلى النهاية مع الميمونية. لكن للحكاية بقية: كلا، لم تنته الفلسفة الإسلامية بنهاية الفلسفة الأندلسية، بل استمرت الفلسفة إما في صورة فلسفة صوفية هاجرت شرقا (ابن عربي وابن سبعين) أو في صورة فلسفة هاجرت غربا بعد سقوط طليطلة ونشوء مدارس الترجمة بكنائس أوروبا، والتي أدركت أن قوة الأندلس كانت تكمن في فكرها، فسعت إلى تملكه بعد أن أفل أهله، أو في صورة تحول التصوف الإسلامي إلى تصوف يهودي (القبالة). هكذا، عمدت المؤلفة إلى رصد تنقل الأفكار هذه المرة بين الثقافة الإسلامية والثقافة النصرانية . جيئة وذهابا وغدوة ورواحا. ترى ما الخيط الناظم لهذه المروية ثلاثية الملل -الإسلام واليهودية والنصرانية- وثلاثية الفلسفات -الأفلاطونية والأمباذوقليسية المنحولة والأفلاطونية المحدثة؟- جواب المؤلفة: هما أمران: التوحيد والتأويل الصحيح لصفات الله. هي إذن مروية واحدة إذن ثلاثية الشخوص أو هي بمثابة سجادة ثلاثية الألوان. فلا ينبغي -على عكس ما جرت به العادة- الاكتفاء من المروية بشخص واحد، لا ولا النظر إلى السجادة من خلال لون أوحد.

أخيرا، وعلى الرغم من جهود المؤلفة في هذا الكتاب، فإنه ظل سجين الرؤية الاستشراقية لتاريخ الفلسفة الإسلامية، إن مشرقا أو مغربا، بحيث يحاول «إعادة» أوصال هذه الفلسفة، بعد أن يقطعها تقطيعا، إلى هذا المذهب الفلسفي اليوناني أو ذاك، فيشرح لنا في أحيان كثيرة كيف تم نقل هذه الفكرة أو استملاك تلك، لكنه قد يعجز عن الجواب: لم تم اختيار هذا المذهب وتبنيه بدل ذلك؟ ذاك هو السؤال الذي كان طرحه محمد أركون منذ أزيد من نصف قرن من الزمن على المستشرقين وحاروا في شأن جوابه.. وتظل الحيرة مستمرة!!

- الكتاب: "الفلسفة الإسلامية واليهودية في الأندلس".
- المؤلفة: سارة سترومسا.
- الناشر: مطابع جامعة برينستون، (برينستون وأكسفورد)، ٢٠١٩م.
- عدد الصفحات: ٢٢٠ صفحة.

*** أكاديمي مغربي**

القدس مدينة السلام وبؤرة الصراعات
برونو فُورتي

عزالدين عناية *

يحوز هذا الكُتيّب أهمية معتبَرة لِما يتضمّنه من عرضٍ كافٍ لوجهة النظر الكاثوليكية، بشأن الموقف من فلسطين بوجه عام ومن القدس بوجه خاص. فقد أُنجِز هذا المؤلَّف على أساس نصّ حواريّ أُجري مع رئيس الأساقفة الإيطاليّ برونو فورتي، المكلّف من قِبل البابا فرنسيس ماريو برغوليو بملفّ علاقات حاضرة الفاتيكان باليهودية واليهود. لماذا يهمّ القارئ العربي الاطلاع على رأي الكردينال برونو فورتي بشأن مدينة القدس؟ تلوح أهمية ذلك لأنّ الرجل يترأس الهيئة الفاتيكانية المكلّفة بالشأن اليهودي، وهو عضو في اللجنة المختلطة الدولية بين الكنيسة الكاثوليكية والحاخامية الكبرى في إسرائيل المعنيّة بمتابعة الشأن الديني ذي الصلة بالطرفين اليهودي والمسيحي.

حيث يجلي الكتاب العديد من النقاط اللاهوتية والسياسية الدقيقة بين الجانبين اليهودي والمسيحي. فغالباً ما يتعذّر على غير المختص الإلمام بتشعّبات سياسة الكنيسة والموقف المسيحي من القدس ومن فلسطين ومن إسرائيل، فتبدو الأمور ضبابية أو يطبعها التضارب والتداخل. يُجلي هذا الكتيّب مظاهر الغموض في الموقف الكنسي، فهو يشبه «الاعتراف» بشأن قضية حسّاسة تتمثّل في مدينة القدس.

ينطلق فورتي تبعًا للأسئلة المطروحة عليه من جانب المحاور الصحفي جوسيبي كافوللي، المقرَّب من الأوساط الدينية في حاضرة الفاتيكان، من تحديد ملامح المدينة المقدّسة على مستوى ديني وعلى مستوى تاريخي، فهي وفق قراءته مدينة السلام، ولكن أيضاً مدينة الخصام والنزاعات. حيث يورد فورتي توصيفًا للمدينة مستوحى من تراث الأحبار يقول: حين خَلق الله العالم، خصّ مدينة القدس بتسعة أعشار مقادير الجمال وترك العُشر الباقي للعالم؛ وبالمثل خصّ القدس بتسعة أعشار مقادير الحكمة وترك العُشر الباقي للعالم؛ وعلى غرار ذلك خصّ المدينة المقدسة بتسعة أعشار مقادير الآلام وترك العُشر الباقي للعالم. وما يُلفت النظر في الكتاب الإلحاح المفرط على استدعاء القيمة الروحية للمدينة المقدسة، في اليهودية والمسيحية، دون لفت الانتباه إلى واقع الاحتلال الذي ترزح تحته، كونها مدينة رهينة مصادَرة من أهاليها وأصحابها الشرعيين، وهو ما يشي بإضفاء مشروعية على الواقع السائد في التاريخ الحالي. إذ يخرُج الكتاب عن واقعية التعاطي مع المدينة، ليغرق في دلالات مفارقة ذات أبعاد صوفية مستوحاة من سفر المزامير أو من سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي خصوصًا، على غرار استحضاره: «ثمّ رأيًا سماءً جديدة وأرضًا جديدة لا بحر فيها، لأنّ السماء والأرض القديمتين قد زالتا. وأنا رأيت المدينة المقدسة، أورشليم الجديدة، نازلة من السماء عند الله، مجهزة كأنها عروس مزينة لعريسها» (الرؤيا٢١: ١-٢).

إنّ الاستحواذ على القدس، كما تعبّر عنه السياسة الإسرائيلية له ما يناقضه، فالقدس للذين يراعون قداستها، وليس كما تذهب الرواية الحصرية والعنصرية في اعتبارها ملكًا للشعب المختار. فالنبي المؤسس «للدولة اليهودية» كما تزعم الرواية الصهيونية، داود (عليه السلام)، ما كان من ذلك «النسل المختار»، فهو مؤابي ابن مؤابية، وهو عادة ما لا يتوقف دارسو التراث اليهودي من اليهود كثيراً عند تحدّره السلالي.

يستعيد الكردينال برونو فورتي قولة لفريديريك مانز، أحد المتخصّصين في الكتاب المقدس اليهودي، «لن يتسنى بلوغ المصالحة إلا متى صَفَح الواحد منّا عن الشتائم، وهجر الزعم القائل بأنّه وحده من يُجلّ القدس، فهذه هي الضريبة اللازمة مقابل السلام. إذ لا يتعلّق الأمر بصياغة إيديولوجيات جديدة، بل بفسح الطريق أمام الله الذي يدقّ على الأبواب. فقد دعا ربُّ الميثاق إسرائيلَ وبشكل متكرر إلى مراعاة الغريب الذي يعيش في أحضانها. وما دام ليس هناك سلام بين الأديان فبالمحصلة ليس هناك سلام في القدس». الواضح أنّ ثمّة مغالطات لا حصر لها في الخطاب الديني «الأخوي» ذي المنزع العاطفي بين الأديان الثلاثة، يتغاضى أحياناً عن المظالم والانتهاكات التي يتأذى منها الفلسطيني باجتثاثه القسري من أرضه وتهويد تاريخه. فلاشك أنّ مسعى تهويد القدس وقلب حقائق التاريخ يجد كلاهما دعمًا من سلطة عسكرية غاشمة، يفوت برونو فورتي إيراد ذلك في الكتاب، ومن هذا الباب لن يثمر الخطاب التصالحي ما افتقر إلى مراعاة حقوق الناس، لأن الشرائع السماوية هي بالأساس مراعاة لحقوق الناس قبل أن تكون محبة هائمة.

نرصد في الكتاب روحا دينية حالمة تطارد السلم، لا تستوفي الشروط الواقعية. والحال أنّ السلم مقرون بالعدل والعدل سبيله العمل: «... أُطلب السّلامَ واعملْ له» (المزمور٣٤: ١٤). فهناك حذرٌ سياسيٌّ مبطن في قول برونو فورتي، بشأن أعداء السلام، سيما وأنّ الرجل موكل إليه ملف العلاقات اليهودية المسيحية في حاضرة الفاتيكان. ذلك أنّ السلم تتعذّر إشاعته ما لم يصاحبه العدل: «فيسكن في البرّية الحقّ والعدل في البستان يقيم. ويكون صُنعُ العدل سلامًا وعملُ العدل سكونًا وطمأنينة إلى الأبد. ويسكن شعبي في مسكن السّلام وفي مساكن مطمئنّة وفي محلّات آمنة» هكذا عبّر النبي إشعياء عن تلك الثنائية في السفر المنسوب إليه في الإصحاح (٣٢: ١٦-١٨).

وفي القسم المخصّص للحديث عن رمزية القدس ودلالاتها في المنظور الإسلامي، تبدو معلومات برونو فورتي شحيحة وسطحية أحياناً، ولا تستوعب العمق الأنطولوجي الذي أرسته معاني الإسراء والمعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. ليحضر بدل ذلك تنظير لتحويل المدينة إلى عقار ديني متقاسَم بين طرفين يهيمنان على الساحة الدولية: الإسرائيليون بالداخل والمسيحيون بالخارج، مع إغفال واضح للطرف الإسلامي، وما في ذلك من حيف، وهو ما لا يُساعد على تسوية الأمور بشكل منصف وعادل. يكشف رئيس الأساقفة برونو فورتو عن ضحالة معرفية بشأن الإلمام بعلوم القرآن حين يذهب إلى غياب التفسير والتأويل لدى المسلمين، ومجرد ما يتراءى له ما يطلق عليه «تطبيق» القرآن من قِبل المسلمين (ص: ٤٢). إذ يلغي فورتي تلك العملية الإدراكية للمسلم التي تصله بالنص الموحى ليضفي جمودا مبطنا على العقل الإسلامي. وبما يعني غياب الجدل الواعي بالنص والحضور للتطبيق المسقَط لتعاليمه. بناءً على ذلك ينفي إمكانية قيام حوار يهودي-مسيحي مع المُسلمين مدّعيا أنّ مفهوم الوحي بين الطرفين على نقيض. ربما لسائل أن يسأل متى كان للمسيحية نظرية أو خطة في استيعاب الآخر ضمن نسيجها الاجتماعي مبنية على أساس ديني؟ لم يحصل ذلك سوى بعيد مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥)، ومع انطلاق الحديث عما يُعرَف بـ«لاهوت الأديان» الذي ما زال يشق طريقه بصعوبة بالغة.

يَعتبر رجل اللاهوت فورتي النظرَ اليهودي إلى القدس نظرًا دينيا لاهوتيّا بوصف المدينة المقدسة موضعا للإرادة

الإلهية التي أقرّت ذلك، في حين يعتبر النظر العربي للقدس ذا ملامح تاريخية ويفتقر إلى البعد الديني، بوصف مركز الثقل الديني لدى العرب والمسلمين يقع في جزيرة العرب. ثمة تسطيح للدلالة الإسلامية الرمزيّة لمدينة القدس لدى فورتي، يفتقر إلى الوعي بالمنظور الإسلامي للأنبياء ورسالات التوحيد الموحَّدة، فلا يجبّ الإسلام حق اليهودية والمسيحية في إجلال القدس، بوصفها رأسمالا رمزيا عميقا في الأديان الإبراهيمية؛ ولكن ما ينفيه هو الطغيان الممارَس في حقّ المعنيين الآخرين بهذا الرأسمال الرمزي للقدس. تلك الاحتكارية الطاغية هي ما أراد الإسلام كسرها لخلق انفتاح إيماني مبني على أسس جامعة شاملة.

يقتضي فهم التقارب المسيحي اليهودي في التاريخ المعاصر إلمامًا بالتحولات الجارية في ساحة السياسة الدولية. فمنذ ما يزيد عن خمس عشرة سنة انطلقت مفاوضات، على قدم وساق، بين كنيسة روما والحاخامية الكبرى في إسرائيل، أي منذ الاعتراف المتبادل بين الجهتين (حاضرة الفاتيكان ودولة إسرائيل) سنة ١٩٩٣، وذلك في أعقاب أوسلو. فالصورة الرائجة أو المروَّجة عن تلك المفاوضات، بين الجانبين الإسرائيلي والفاتيكاني، أنها تتعلق بالإعفاءات الضريبية من عدمها، وبموضوع التأشيرات لرجال الدين، وبالأوضاع القانونية لبعض المناطق المقدسة المسيحية والتي من مجملها عليّة صهيون، موضع العشاء الأخير للسيد المسيح مع حواريه، وهو المكان الذي يُرجَّح أنه يضمّ مقام النبي داود والمصلّى الصغير الذي يُعرف بكنيسة الحواريين. وقد بقي المكان طيلة عهود سابقة تحت رعاية عائلة الدجاني المقدسية إلى حين تم ضمّه إلى وزارة الأديان الإسرائيلية، وهو في الوقت الحالي في قبضة المتدينين اليهود.

لكن الواقع أنّ تلك المفاوضات تبدو سائرة باتجاه ما هو أهمّ ألا وهو القبول بالأمر الواقع، والإقرار بسيادة إسرائيل التامة على القدس، مقابل الاعتراف بتسيير تنظيم الفرنسيسكان، فصيل الرهبنة التابع لكنيسة روما، لموضع العشاء الأخير وإقامتهم القدّاس في المصلّى الصغير. أي الاستغلال التام مقابل التنازل التام عن الملكية. تجري عملية المفاوضات بقيادة المالطي أنطوان كاميلاري الذي خلف سلفه إتوري باليستريو، بعد أن أُبعد الأخير إلى كولومبيا جراء تورطه في التستر على عمليات فساد أخلاقي. ما يطفح من فحوى الكتاب أنّ مدينة القدس تعاني من الاستحواذ، ونقصد به السعي الحثيث لتقاسم الإرث الروحي للمدينة المقدسة بين طرفين: المسيحية الغربية، وأساسا منها مسيحية روما، ويهودية إسرائيل. يبدو التغييب لمختلف الكنائس الشرقية الأخرى متعمَّدا، ناهيك عن الإقصاء المقصود للطرف الإسلامي الذي يمثّل النقيض. فهناك تسييس مبطَّن للقدس مسكوت عنه في عملية التفاوض بشأن المدينة المقدسة، يجري فيه تغييب

الطرف الإسلامي بشكل لافت.

في جانب آخر من الكتاب يلمّح برونو فورتي إلى الانقسام الليتورجي الحاصل بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الكاثوليكية داخل مدينة القدس، مع ذلك يرصد التحول المتطور من حيث القبول بالآخر، وهو نتاج حوار مُتواصل في العقود الأخيرة بين مختلف الكنائس بفضل الدعوات المسكونية. لا شك أنّ الكنيسة قد شهدت تحولا استراتيجيا مهمّا منذ مجمع الفاتيكان الثاني، تمخّض عن رؤية جديدة في التعامل مع العالمين المسيحي وغير المسيحي؛ لكن ذلك التبدل لم يغير من مطامع الاستحواذ على الرأسمال الروحي الرمزي للمسيحية من قِبل كنيسة روما. فقد خلّفت الهيمنة الدينية للكنيسة الكاثوليكية على البقاع المقدسة تغريبًا للمسيحية الشرقية وأوْرَبةً لها. ففي ظلّ التوتر الدائم بين السلطات الدينية اليهودية المتحكمة بالشأن الديني في المدينة العتيقة مع مختلف الأطراف الإسلامية والمسيحية العربية، تطوّر تنسيق وتشاور وتفاوض بين كنيسة روما والسلطات الدينية اليهودية.

لا شك أنّ هناك تناقضات كبرى تعيشها المسيحية في المشرق، من جانب تنتشر حالة من التخويف من الأوساط الإسلامية، ما دفع العديد من الكنائس الصغرى إلى الارتماء في أحضان حاضرة الفاتيكان، بحثاً عن حماية زائفة. فجرى خلق الموارنة الكاثوليك والسّريان الكاثوليك، والأقباط الكاثوليك، والكلدان الكاثوليك، والأرمن الكاثوليك؛ ومن جانب آخر ثمة حالة من التضييق من قِبل السلطات الإسرائيلية في الداخل الفلسطيني، دفعت بالعديد من الكنائس إلى البحث عن حماية من الكنائس الغربية النافذة والمقتدرة مادياً، وهو ما انعكس مباشرة على أعداد المسيحيين العرب، حيث تضاءلت النسبة في فلسطين إلى ٢ بالمئة في وقت كانت تقارب في ما مضى ٣٥ بالمئة. فلا يمكن مقارنة الأوضاع المادية للكنائس الغربية المتلهّفة على موطئ قدم في الأرض المقدسة مع الكنائس الوطنية الفقيرة والمعدمة، التي غالبًا ما وقعت داخل هذا التناقض رهن الإغراء. وإن كان ثمة كنائس شرقية قد عوّلت على تلك الحماية الغربية المزعومة، فلم تجن منها سوى الذوبان في مؤسسات دينية عملاقة.

ينبغي ألّا نغفل عن التطوّر الحاصل في الحوار اليهودي المسيحي منذ عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين (١٩٥٨-١٩٦٣) وما صحبه من انفتاح مع «نوسترا آيتات»، فحين قدم الحاخام الفرنسي جيل إسحاق (Isaac Jules) على البابا يوحنا الثالث والعشرين علّق الأخير قائلاً: «ما كنت أفكر أنّ حاخاما يمكن أن يكون طيّبا لهذا الحد». فرد عليه الحاخام بالمكر ذاته: «ما كنت أفكر أنّ البابا أيضاً يمكن أن يكون طيبا لهذا الحد» (ص: ٣٧). لقد حصلت تطورات هائلة في العلاقات اليهودية المسيحية منذ صدور نوسترا آيتات، حيث بدأت الكنيسة تسعى بشغف لإعادة اكتشاف جذورها اليهودية وكأنها تستدرك ما فاتها.

يتطرق برونو فورتي في منتهى الكتاب إلى الإغواء الحاصل في أوساط اليهود بفعل الصهيونية والحثّ على التوجه صوب «إسرائيل» في مطلع القرآن الفائت. وهو ما جعل العديد من اليهود، من المثقفين والأساتذة والشعراء يهجرون أوطانهم الأصلية ليختاروا «العاليا» باتجاه فلسطين. دبّ في هذا الانجذاب فتور بعد مرور السنوات، وبات أبناء القادمين يبحثون عن مقام جديد خارج «الأرض الموعودة» في أمريكا وفرنسا وإنجلترا، فقد تسرّب فتور داخلي للتحفّز شبه الصوفي، أبان عن اكتشاف ملموس لذلك الوهم المتلخص في شعار «العام القادم في أورشليم». لعل قانون يهودية الدولة (٢٠١٨) هو في عمقه ردّ فعل على ذلك النزيف الصامت الذي تتعرض له إسرائيل من الداخل، كما يرصد اللاهوتي برونو فورتي، فهناك محاولات لإيقاف الذوبان الإرادي الذي تعيشه إسرائيل والحيلولة دون تطوّره.

الكتاب: القدس.. مدينة السلام وبؤرة الصراعات.

تأليف: برونو فورتي.

الناشر: منشورات تيرّا سانتا (ميلانو) "باللغة الإيطالية".

سنة النشر: ٢٠١٩.

عدد الصفحات: ١١٢ ص.

*** أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا**

الأسئلة الاقتصادية والاجتماعية الكبرى باسكال كومبيمال

سعيد بوكرامي *

هذا الكتاب جزءٌ من سلسلة تتكوَّن من ثلاثة مجلدات تهدف لتغطية القضايا الاقتصادية والاجتماعية الكبرى في أوروبا والعالم.. وتتمثل خصوصيته أولًا في أنه أُنجِز من طرف متخصصين في هذه المجالات، وهم من الباحثين الجامعيين المعترف بهم، وثانيا لأنها موجهة للطلاب في المرحلة الجامعية خصوصا وللقراء المهتمين عموما.

وسواء كانت هذه الدراسات عروضًا تقديمية أو أطروحات ناجحة أو تحضيرات فعّالة للاستحقاقات الجامعية أو فهمًا أفضل للعالم المعاصر، فإن هذا الدليل المرجعي يلبي احتياجات ومتطلبات جمهور واسع: من الجامعيين والمهتمين بإعداد المحاضرات والمقالات أو أي شخص يريد فهم القضايا الاقتصادية والاجتماعية بشكل أفضل. ويتناول المجلد الصادر حديثا المواضيع التالية: تحليل الحراك الاجتماعي، وديناميات التقسيم الطبقي الاجتماعي؛ والعمل الجماعي والصراع الاجتماعي؛ وإشكالية اللامساواة؛ واللامساواة بين المرأة والرجل؛ والتماسك الاجتماعي في خضم الأزمة الاقتصادية. ويعزَى نجاح هذا الكتاب إلى أهمية القضايا الاقتصادية والاجتماعية التي تمت معالجتها، وقيمة المساهمات الموقعة من قبل أفضل المتخصصين -الأكاديميين والباحثين المعترف بهم- الذين وافقوا جميعًا على بذل جهد علمي وتعليمي حقيقي.

وتتميز النصوص المجمعة هنا بثلاث مميزات رئيسية؛ نُجملها فيما يلي: تحليلها وتركيبها لوضع المعرفة العلمية؛ ووضوحها وسهولة قراءتها يجعلها في متناول الجميع دون المساس بصرامتها؛ كما تعطي إشكالياتها معنى للقضايا التي تعالج مما يثير اهتمام القارئ ويدفعه للبحث عن أجوبة مقنعة. ومن أجل الإجابة بشكل أفضل عن الأسئلة حول العالم ومجتمعنا، خاصة تلك المرتبطة بالأزمات المتعددة التي نواجهها، تعددت المقاربات والموضوعات لتشمل مختلف القضايا الراهنة.

يضم الكتاب -الذي حرره الدكتور باسكال كومبيمال المتخصص في التاريخ والاقتصاد- ما لا يقل عن اثنتين وعشرين دراسة لمتخصصين في التعامل مع القضايا الاقتصادية والاجتماعية. وتشكل هذه النقطة الأخيرة أصالة الكتاب وتنوعه: حيث إنَّ العديد من الكتب المرجعية التعليمية تقدم عروضا للمفاهيم والبيانات، بينما كتابنا اليوم يتحيز للتعامل مع القضايا الكبرى.

وينقسمُ الكتاب إلى أربعة أقسام رئيسية؛ تنقسم بدورها إلى فصول. يُركِّز القسم الأول على النمو والعمل والتوظيف، ويتناول القسم الثاني التغييرات والشروخ في المجتمع الفرنسي (مع التركيز بشكل كبير على مسألة اللامساواة الاجتماعية)، أما القسم الثالث فيركز على العولمة، في حين يهتم القسم الأخير بالأزمات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية ونتائجها. ليس من الممكن ولا المرغوب فيه تقديم جميع الدراسات بشكل مكثف في هذه المراجعة، لذلك اخترنا الحديث عن أهمها وأكثرها عمقا وإقناعا.

وفي الفصل المخصص لعالم العمل، يعرضُ برنارد غازير التغييرات المختلفة، في القرنين الأخيرين؛ بحيث انتقلت فرنسا من القوى العاملة الريفية والفلاحية في الغالب إلى القوى العاملة ذات الغالبية الحضرية وذات الرواتب. وهذا يُؤكد الاستقرار الكبير الذي عرفه هذان القرنان بفضل قوة الثورة الصناعية. ويتابع جيروم غوتي ويانيك لورتي تفكيك عالم العمل والتوظيف، وهي فرصة للتذكير بالدور الذي تلعبه الإنتاجية الصناعية: المرغوب فيها اقتصاديا، التي يمكن أن تكون لها عواقب سلبية في خلق فرص العمل في الواقع، مع المحافظة على معدل النمو نفسه، اعتمادًا على ما إذا كان الأخير واسعًا أم مكثفًا، فليس له نفس النتائج من حيث التوظيف. إذا أراد أي بلد المزيد من الإنتاج، يمكنه أن يعمل أكثر (توظيف العمال، يعني انخفاظ معدل البطالة). ولكن لإنتاج أكثر، يمكن أيضًا أن نعمل بشكل أفضل وأكثر كفاءة، إلى مستوى نصل فيه إلى إلغاء بعض الوظائف (على سبيل المثال، عندما يتم استبدال العمال بالروبوتات). ويشير الاقتصاديان أيضًا إلى تنوع معدلات البطالة (التي يمكن تغيير تعريفها بحد ذاته)، اعتمادًا على ما إذا كان ينظر إليها بحسب العمر أو الجنس أو الشهادة. كما أنهما يقدمان مناقشات مهمة حول هذا الموضوع، مثل دور المؤسسات (حول ما يسمى بـ«الصلابة»)، التي تخص الحد الأدنى للأجور والضمان الاجتماعي، وتعويضات البطالة وحماية العمالة. فيما يتعلق الأمر بتقليص وقت العمل، لخلق فرص عمل إضافية وإنتاجية نوعية. أما لويس شوفيل فيستعرض التقسيم الطبقي الاجتماعي. ويؤكد أنه لا ينبغي لنا أن نفهم أوجه اللامساواة فقط من الزاوية الإحصائية، كما نفعل كثيرًا. في الواقع، إذا لاحظنا النسبة بين متوسط راتب المديرين التنفيذيين ورواتب العمال، يدرك المرء أنه مر من ٤,٣٪ في العام ١٩٥٥ إلى ٢,٤٪ اليوم. ومن هنا نستنتج أن اللامساواة في الأجور قد انخفضت، لكن يجب النظر إلى الأمر بطريقة ديناميكية. في الواقع، إذا نظرنا إلى الوقت اللازم لمعدل الأجر المتوسط للعمال للوصول إلى أجر الأطر العليا، مع الأخذ في الاعتبار نمو الأجور، فإننا ندرك أنه إذا كنا قد احتجنا ٣١ سنة في عام ١٩٥٥، فإننا نحتاج الآن ١٥٥ سنة للوصول إلى مساواة اجتماعية.

... إنَّ دراسة اللامساواة الاقتصادية قد تمت على مرحلتين: يقوم توماس بيكيتي بتقييمها على امتداد فترة طويلة. وتعد أهم حقيقة في هذا المجال هي اختفاء المستأجرين خلال القرن العشرين. اليوم، يحصل الأفراد ذوو الدخل الأعلى في الغالب على أجورهم، بينما في المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر كان مصدر الأجور يأتي من مداخيل التراث. يلاحظ بيكيتي بذكاء أن نهاية المستأجرين ساعدت بلا شك على إضفاء الشرعية على اللامساواة. لشرح الاختفاء شبه الكامل للمستأجرين، يجب أن نبحث عن دور الحروب (المدمرة لرأس المال) والضريبة التصاعدية (التي تمكن من التقليل من

اللامساواة). إن ثروة البيانات المعبأة مذهلة، لكننا نأسف لعدم تحيين بعضها وفق البيانات الجديدة ومستجدات العصر. بينما يوسع لوكا شانسيل بؤرة التركيز من خلال معالجة اللامساواة على المستوى العالمي. وتعد إحدى النقاط البارزة في البلدان جميعها، منذ الثمانينيات، كان معدل نمو الدخل أعلى بين الأفراد الأكثر ثراء. وحتى في البلدان التي يستفيد فيها الفقراء من النمو، لا يزال الأكثر غنى هم من يستفيدون. من وجهة النظر هذه، فإن التفاوت الطبقي المتزايد ظاهرة عالمية تتكرس عاما بعد عام بسبب انتشار العولمة والنظام الاقتصادي الليبرالي.

وفي جزء غني مكرس للامساواة، يعود دومينيك ميرلي إلى موضوع سال حوله في السنوات الأخيرة الكثير من المداد: التحرك الاجتماعي. وأشار إلى أنه وللحديث عن التحرك الاجتماعي، فمن الضروري تحديد ليس فقط الجداول الكلاسيكية للتنقل الاجتماعي ولكن أيضًا حالات المغادرة والوصول، وهو أمر غير واضح. هل يجب أن نأخذ في الاعتبار شهادة الأب أم شهادة الابن؟ كم عدد الفئات التي يجب أن نحتفظ بها؟ يصبح السؤال أكثر حدة عندما تدخل المرأة في اللعبة، عندما نعرف أن معدل نشاط الإناث كان لفترة طويلة أقل بكثير من معدل الرجال (الفروق صغيرة اليوم).

ومن الواضح أن مسألة النوع الاجتماعي لا يمكن تجنبها عندما نتصدى للتفاوتات. تذكر فرانسواز ميلوسكي أن معدل مشاركة النساء بين ٢٥ و٤٩ عامًا قد اقتربت من معدل مشاركة الرجال، مما يؤكد أن نموذج ربة المنزل قد استمرّ طويلا، على الرغم من أن العديد من النساء الذين يعملون يفعلون ذلك بدوام جزئي. من الضروري أيضًا أن نتذكر الفروق في الأجور (يحصل النساء على أجور أقل بحوالي الربع عن الرجال)، الأمر الذي يؤدي منطقياً إلى اختلافات في معاشات التقاعد، بل وأكثر من ذلك: بصرف النظر عن معاشات الباقين على قيد الحياة، يبلغ متوسط معاش النساء ٤٢,٣٪ أقل من متوسط معاش الرجال، وهذا يجسد بجلاء التفاوتات الاجتماعية.

وفي سياق مكمل للسابق، يعود روبرت كاستل بعبارات واضحة إلى نشأة وتطور الحماية الاجتماعية، مستدعيا وشارحًا إشكاليتها وبعض مفاهيمها، مثل مفهوم الملكية الاجتماعية. هذا المنظور يجعل من

الممكن فهم انقلاب حالة الأجور، وهذا وضع مخزٍ كان يخص البروليتاريا في القرن التاسع عشر، لكنه سيصبح مع تطور مؤسسات معينة، مقننا بإجراءات مثل قانون العمل أو التأمين الاجتماعي، وبالتالي سيصير وضعًا مطلوبًا يمثل الاستقرار الاجتماعي ويضمن استمرارية المؤسسات. في الواقع، يضمن الموظف، من خلال المساهمات الاجتماعية، عددًا من الحقوق التي تحميه من المخاطر الاجتماعية المختلفة (الشيخوخة، المرض، البطالة...).

وفي القسم المخصص لقضايا العولمة، ينجز دومينيك بليهون تقييما للعولمة المالية. كجزء موسع من ظاهرة العولمة، لأنه الوجه الأكثر وضوحًا. في الواقع، المعاملات المالية الدولية اليوم لا تتناسب مع احتياجات التجارة الدولية. لم يعد التمويل الدولي راضيًا عن دوره البسيط كمزود للأموال المخصصة للأنشطة الإنتاجية، بل يسعى إلى تأسيس وجوده ومنطقه الخاص. إذا كان الجميع، في الوقت الراهن يتفق على الحاجة إلى إصلاح التمويل الدولي، فإن الآراء تتباين بين أولئك الذين يريدون المزيد من التحرير، بحيث يمكن تطبيق مبادئ السوق بسهولة أكبر. وبين أولئك الذين يدافعون أكثر عن التحرير المقنن حسب الظرفية والجغرافية والموارد، بحجة أن التلاعب في الأسواق المالية وانتهاز الفرص له طبيعة مزعزعة للاستقرار للاقتصاد العالمي.

أما القسم الأخير، فيتناول الأزمات (الاقتصادية والاجتماعية والبيئية...) التي نمر بها. يعود جاك أدا إلى الأزمة المالية التي بدأت في الفترة ٢٠٠٧-٢٠٠٨، مقتفيا جذورها وأسبابها مسلطا الضوء على دور التسنيد، الذي يمكن إرجاع جذوره إلى الثمانينيات من القرن الماضي. تتألف هذه التقنية المالية من إنشاء منتجات بنكية من الذمم المدينة، بهدف تبادل أفضل للمخاطر. لكن المشكلة هي أن هذا التخفيف من المخاطر يضاعف القروض الممنوحة من البنوك. كما توفر المنتجات المشتقة وتحويل الديون إلى أوراق مالية وسائل بديلة لرفع عائدات الأسهم. لعبت الابتكارات المالية الأخرى، مثل الرهنيات العالية المخاطر أيضًا دورًا رئيسيًا في إشعال الأزمة وانتشارها. يؤكد جاك أدا على «عودة الدول» لمحاولة مواجهة آثار الأزمة، مع رد فعل أكثر هجوما من جانب الولايات المتحدة وبنكها المركزي بينما كان أقل في بلدان منطقة اليورو.

ويهتم جان جادري بنقد النموذج الفوردي، وعلى الأخص بأدوات قياس النمو. يلاحظ -على سبيل المثال- أن مكاسب الإنتاجية تجعل من الممكن إنتاج المزيد بكمية عمل ثابتة، ولكن دون حساب الموارد الطبيعية. إذا كنا قد استطعنا نسيان هذا الجانب خلال الثلاثينيات المجيدة، فإنه يصبح لا مفر منه لكن من منظور بيئي. يظهر جان جادري أيضًا أن الإنتاج الأكثر ملاءمة للبيئة، وبالتالي أقل كثافة، سيكون بالضرورة أكثر ثراءً في الوظائف.

وحتى لو بقيت بعض المشكلات البسيطة عالقة لا يمكن تجنبها في مثل هذا النوع من الكتب، مثل المستويات التقنية المختلفة بين الفصول وبعض الزوايا الميتة (حول التطور أو في تحليل أكثر منهجية للرأسمالية المعاصرة)، هذا لا ينقص شيئا من ثراء الكتاب وفائدته التعليمية الكبيرة بحيث تبرز في تغطيته لموضوعات عديدة ومن وجهات نظر متباينة ومتكاملة، مصحوبة ببيانات جديدة وأفكار مبتكرة، وبذلك يستطيع أي قارئ مهتم أن يفهم عالمنا الاقتصادي والاجتماعي بشكل أفضل وأوضح وأعمق.

- الكتاب: "الأسئلة الاقتصادية والاجتماعية الكبرى".
- المؤلف: باسكال كومبيمال.
- الناشر: دار لاديكوفيرت، فرنسا، بالفرنسية، ٢٠١٩م.
- عدد الصفحات: ٤٨٦ صفحة.

*** كاتب مغربي**

تأثير الثروة: كيف غيّرت التوقعات الكبيرة للطبقة الوسطى سياسة الأزمات المصرفية؟ - أندرو التر و جيفري شويروث

محمد السالمي *

يتفق الكثير من الاقتصاديين على أن الدور الرئيسي للحكومات تجاه الرعية يتمثل في زيادة الرفاه الاجتماعي. ولو قارنا إجمالا بين الدول، لوجدنا أن هناك ارتباطا وثيقا بينها وبين الديموقراطية. فالرفاه الاجتماعي يتناسب طرديا مع الديموقراطية. ولكن لكل قاعدة شذوذ. في هذا الكتاب، يأتي كل من أندرو التر و جيفري شويروث لمناقشة كيف أدى التطور المشترك للسياسة الديمقراطية والثروة المالية الجماعية إلى زعزعة استقرار النظم المالية والأسس الاجتماعية على المستويين المحلي والعالمي.

فعلى المدى الطويل، زاد الضغط السياسي على الحكومات للقيام بعمليات الإنقاذ خلال الأزمات المصرفية الكبرى، وذلك من خلال استياء الناخبين لخسائر ثرواتهم وعدم المساواة في التوزيع؛ كل ذلك أدى إلى انتقاد حاد حول أداء الحكومة، حيث يرى الناخبون بأن الحكومة مسؤولة عن حماية هذه الثروة. وكانت النتيجة هي عملية إنقاذ أكثر تكلفة، وتداعياتها السياسية أشد وطأة بسبب الحكم الديمقراطي. لقد قام المؤلفان باستخدام سلسلة من البيانات على مدار قرنين من الزمان، لكل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة والبرازيل، حيث أن هذا الكتاب يفتح آفاقًا جديدة في استكشاف عواقب البعد السياسي الناشئ عن الاستقرار المالي.

و للتعريف بالكاتبين، فإن شويروث هو أستاذ الاقتصاد السياسي الدولي في قسم العلاقات الدولية في كلية لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية. وقد نشر العديد من المقالات وفصول الكتب حول الاقتصاد السياسي للمال والتمويل الدوليين. أبرز مؤلفاته «أفكار رأس المال: صندوق النقد الدولي وصعود التحرير المالي». أما أندرو والتر فيعمل أستاذا للعلاقات الدولية في كلية العلوم الاجتماعية والسياسية بجامعة ملبورن. وقد شغل مناصب أكاديمية سابقة في كلية لندن للاقتصاد وجامعة أكسفورد. له العديد من المؤلفات حول الاقتصاد السياسي للقضايا المالية والنقدية الدولية، أبرز مؤلفاته: «الحوكمة المالية العالمية تواجه القوى الصاعدة: آفاق ناشئة في G20 الجديدة».

أصبحت سياسة الثروة مثيرة للجدل في كل من الديمقراطيات والنظم الغير ديمقراطية؛ حيث إن مقدار تراكم الثروة يعيد تشكيل السياسة وخياراتها. يوضح المؤلفان أن تراكم الثروة المالية الضخمة يزيد من عدم الاستقرار المالي كما يسهم في عدم الاستقرار السياسي. يتساءل المؤلفان: لماذا تكون الحكومات أكثر عرضة للمعاناة عندما تستجيب لعدم الاستقرار المالي عبر التدخلات السياسية؟ في الأساس، يضع الناخبون آمالًا كبيرة على الأداء الحكومي أثناء الأزمات التي يصعب الوفاء بها. ترتبط الأزمات المدارة جيدًا عادة بخسائر كبيرة في الدخل والثروة. يحمّل معظم الناخبين المسؤولية على الحكومة؛ لأنّ سرد المسؤولية الشخصية غير جذاب بالنظر إلى الاعتماد المتزايد على الرفاهية القائمة على الأصول. ثانياً، من المرجح أن يفسر الناخبون بداية الأزمات المصرفية على أنّها إشارة على عدم الكفاءة. ثالثًا، غالبًا ما تكون توقعات الناخبين المعاصرين غير واقعية وغير متسقة ومليئة بالصراع. إنّهم يريدون من الحكومات أن تحمي ثروتهم، لكنهم يكافحون التكاليف الباهظة وعدم المساواة في إنقاذ المؤسسات والبنوك التي يُنظر إليها على أنها متميزة وغير مسؤولة. أي أن الكثيرين يتوقعون تدخلات «مثالية» لا تستطيع الحكومات تحقيقها، والتي قد تخفف بشكل حاسم وعادل من حدة الأزمة المالية للأشخاص «العاديين» أو بأقل تكلفة لدافعي الضرائب. والجدير بالذكر أنّ الحكومات لا يمكنها بسهولة تجنب دعم المؤسسات المالية الكبيرة في مركز الشبكات المالية الحديثة. كما أنّ القيود المؤسسية تعني أنّ الحكومات تستجيب أيضًا ببطء وليس بشكل حاسم في الأزمات، مما يؤدي إلى تفاقم عدوى السوق وفقدان الثروة وزيادة تكاليف الإنقاذ وهذا ما أكده بن برنانكي الرئيس الفيدرالي الأمريكي أثناء ولايته. كل هذا يسمح لوسائل الإعلام والخصوم السياسيين بتصوير تدخلات الأزمات على أنّها باهظة التكاليف ومتأخرة وغير كافية وغير عادلة.

تنطلق حجة المؤلفين من فرضية «وضوح المسؤولية» المتمثلة في أنّ الناخبين سيكونون أكثر تسامحًا إذا كانت الوحدة السياسية والمؤسسية تجعل من الصعب إسناد المسؤولية إلى صانعي السياسة الأفراد. لا يستطيع معظم الناخبين الحكم على ما إذا كانت التأخيرات أو إخفاقات السياسة هي نتيجة لقيود مؤسسية أو اختيار مدروس أو عدم توافق. يمكن للأزمات المصرفية أيضًا أن تولد جمودًا في السياسة من خلال تفاقم الصراع بين الدائنين والمدينين، وزيادة عدم المساواة الاقتصادية والاستقطاب الأيديولوجي، وتفضيل التدخلات الانتقائية التي يبدو أنّها تفيد المصالح الخاصة. ولهذه الأسباب يميل الناخبون إلى الحكم على أداء الحكومة في سياق قيود السياسة داخل الأزمة بشكل سلبي. لذلك تواجه الحكومات الحديثة تحديات حادة في الأزمات، فهي تعلم أنّ التكاليف السياسية لعدم التدخل هي بالتأكيد أكبر من التدخل، ولكن المكافآت الانتخابية للتدخل هشة.

يتطرق المؤلفان حول التباين بين الديمقراطية وتراكم الثروة بين الدول لما قبل عام ١٩١٤ وما بين ٢٠٠٧ و٢٠١٠. ففي المملكة المتحدة والولايات المتحدة كانت التدخلات الحكومية أكثر شمولاً خلال الفترة ما بين ٢٠٠٧ و٢٠٠٩. بالإضافة إلى توفير السيولة الكبيرة من البنوك المركزية بشكل استثنائي. حيث قدمت الحكومات ضمانات عامة غير مسبوقة لالتزامات النظام المالي غير المؤمن عليها سابقًا، واشترت الأصول المتعثرة للمؤسسات الخاصة دون أن ننسى الأموال التي تم ضخها في المؤسسات المالية الكبرى. هذه النتائج لا تتفق مع الادعاءات الواسعة بأنّ زيادة الديمقراطية والعولمة والأيديولوجية

الليبرالية الجديدة تشكل قيوداً قوية على عمليات الإنقاذ الحكومية. يظهر أنّ تمويل الثروة الجماعية في كلتا الديمقراطيتين يوفر تفسيرًا أكثر إلحاحًا لهذه الاستجابات السياسية والعقوبة الانتخابية التي أعقبت ذلك.

كما سلط الكتاب الضوء على استجابات السياسة البريطانية للأزمة والتبعات السياسية؛ حيث يرى أنّ أحد أسباب عدم اكتساب حكومة حزب العمال ميزة سياسية من تدخلاتها خلال الأزمة هو أنّ الأحزاب الديمقراطية المحافظة والليبرالية المعارضة ساندت بسرعة التدخل العام ونأت بنفسها عن البنوك، وركزت الانتباه على الصراع الداخلي بين فصائل حزب العمال «الجديد» و«القديم». قاموا بتأطير جوانب محددة من حزمة الإنقاذ باعتبارها باهظة التكاليف وغير منصفة التوزيع، ولكن أيضا، فإنّ التكاليف الاقتصادية للأزمة تراكمت، وكانت غير فعالة. تُظهر هذه التكتيكات أنّ جميع الأحزاب الرئيسية كانت تستجيب لتوقعات الناخبين الراسخة. كما أنّ اندلاع الأزمة من أغسطس٢٠٠٧، أرسل للناخبين إشارة سلبية قوية بشأن السياسة الاقتصادية لرئيس الوزراء جوردون براون. في مايو ٢٠١٠، تعرضت الحكومة لخسائر كبيرة في الدوائر الانتخابية التي هبطت فيها أسعار المنازل، وهذا هو بالتحديد المكان الذي كانت فيه الطبقة الوسطى أكثر تعرضًا لخسائر الثروة. يمكن أن يستنتج أن شريحة كبيرة من الناخبين أيدت التدخلات من حيث المبدأ، لكن رد فعلهم سلبي على السياسات التي اعتبروها باهظة التكلفة بشكل غير عادل ومفيدة للأثرياء عمومًا. كانت هذه النتيجة ملفتة للنظر لحكومة اعتقدت بقوة أنّها استجابت بفعالية لتوقعات الناخبين بشأن حماية الثروة والدخل عن طريق منع الانهيار المالي. أما في سياق الولايات المتحدة، فإنّ الضغط السياسي على الحكومات يظهر شكوكا متزايدة للتدخل وإنقاذ الانهيار الاقتصادي مثل بريطانيا. في صيف عام٢٠٠٧، تسبب تأجيل الكونجرس الأمريكي في التعامل مع المؤسسات المتعثرة التي ترعاها الحكومة مثل (فاني ماي وفريدي ماك)، بالإضافة إلى الفوضى المحيطة باقتراح أول برنامج لإدارة الأصول المتعثرة من إدارة بوش في انخفاض حاد في أسعار الأصول. وكانت النتيجة عملية إنقاذ ينظر إليها الكثيرون على أنّها فاشلة وغير عادلة ومكلفة للغاية ولم تكن قادرة على منع خسائر الثروة التي يحاول معظم الأمريكيين تجنبها.

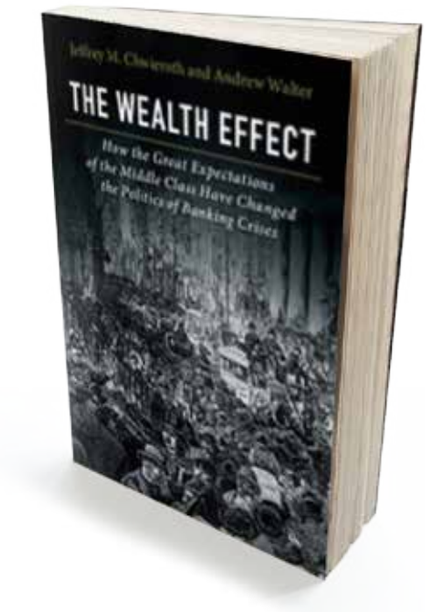

ومن المرجح أن تتأخر القرارات في الأنظمة السياسية التي تظهر استقطابًا حزبيًا أعلى أو تفتتًا مؤسسيًا أكبر بشكل يشبه حق النقض (فيتو). كما تشجع هذه الشروط الحكومات على التدخل بطرق تفضل المصالح المنظمة على المجموعات المنتشرة مثل أصحاب الرهن العقاري. يشير الكتاب إلى أن الحكومات الحالية التي تواجه هذه الظروف تعاني من ارتفاع معدلات العقاب (عدم إعادة الانتخاب) بعد الأزمات المصرفية النظامية فقط منذ عام ١٩٧٠. في حقبة سابقة، يمكن للحكومات المنتخبة النجاة من الأزمات المصرفية النظامية حتى عندما فشلت في التدخل، على النقيض من تجربة الجمهوريين الأمريكيين الحاليين بعد الأزمات العميقة في عامي ١٩٠٧ والأزمة المالية الأخيرة. ففي عام ١٩٠٨، تم بسهولة إعادة انتخاب المرشح الجمهوري للرئاسة وليام هوارد تافت وحلفائه في الكونغرس، بينما في نوفمبر ٢٠٠٨، اكتسح الديمقراطيون جميع فروع الحكومة.

يختتم المؤلفان ببعض التوصيات والنتائج التي توصلا إليها من خلال تحليل البيانات على النحو الآتي: أولاً، يجب على العلماء الاهتمام بكيفية تحول اهتمامات الأسرة والتوقعات الاجتماعية فيما يتعلّق بمسؤوليات الحكومة على المدى البعيد. فقد أصبحت احتمالات بقاء الحكومة أو «إعادة الانتخاب» في عصر تزداد فيه الثروة المالية والتمويل أكثر خطورة بسبب أنّ الناخبين يمكن أن يكون لديهم توقعات أو آمال غير واقعية في استجابة الحكومة. ثانياً، على الرغم من أنّ نتائج الكتاب تتفق مع الادعاء بأنّ صعود الثروة الجماعية يمكن أن يوجه الناخبين نحو وجهات نظر سياسية أكثر محافظة، فقد تكون هذه الآثار غير مستقرة. قد تتبنى الأسر الفرص التي توفرها عملية التمويل خلال طفرات الأصول، ثم تطالب بالحماية الحكومية خلال فترات التراجع أو الركود. ومن المحتمل أن يؤدي هذا إلى تفاقم الصراع المجتمعي ويساهم في تقلب متزايد في السياسات الداخلية والخارجية. وأخيرًا، يساعد الكتاب على توضيح عدم رضا الناخبين المتزايد عن اتجاهات وضع السياسات العامة، وأن هناك أمرا شائكا حول قدرة المجتمعات المعاصرة على الحفاظ على كل من السياسات الديمقراطية، والتمويل والاستقرار المالي على المدى الطويل.

يقدم الكتاب إضافة مهمة للاقتصاد السياسي وعلاقته بالأزمات المالية. الحجة المركزية هي أن ناخبي الطبقة المتوسطة لن يسمحوا بفقدان ثرواتهم في مثل هذه الأزمات. لكن التحول الناتج عن عمليات الإنقاذ، يُظهر أنه يصب في مصلحة المصرفيين وليس الجمهور ككل، ومن هنا يجعل التمويل أكبر وأكثر هشاشة بمرور الوقت ويفقد ثقة أغلب الناخبين. فعمليات الإنقاذ أكثر أهمية من الناحية السياسية، ولكنها لا تستطيع كسب الشعبية من الناحية السياسية. المناقشة الختامية للكتاب حول تحديات سياسة الاستقرار المالي المتمثلة في تزايد عدم المساواة وخسارة الوظائف والتغيير الاجتماعي والاستقطاب السياسي هي بداية مفيدة، وتمثل مجالًا مهما للأبحاث المستقبلية. لقد لاقى الكتاب استحسان الاقتصاديين، حيث تم تصنيف الكتاب ضمن أفضل الكتب الاقتصادية في الفايننشال تايمز لعام ٢٠١٩.

عنوان الكتاب: تأثير الثروة: كيف غيّرت التوقعات الكبيرة للطبقة الوسطى سياسة الأزمات المصرفية
المولفان: أندرو التر وجيفري شويروث
الناشر: Cambridge University Press
سنة النشر: ٢٠١٩
اللغة: الإنجليزية
عدد الصفحات:٥٩٦

*** كاتب عُماني**

الطاعون: تاريخ الأمراض من الحمّى إلى الشلل الرعاشي
أليكسي بايفسكي وآنا هوروجايا

فيكتوريا زاريتوفسكايا*

عندما اعتزم الكيميائي الروسي أليكسي بايفسكي، الذي دخل منذ فترة طويلة مضمار الصحافة العلمية بخطوات جدية، وأنجز فيه عدة مئات من المقالات والمذكرات الإخبارية المتعلقة بالعلوم، ومعه الصحفية الطبية آنا هوروجايا إنشاء بوابة إلكترونية باللغة الروسية حول تطور وتاريخ الطب، خامرهما الشك في أسبقية ما يعتزمان القيام به في شبكة الإنترنت. وحين ثبت لهما أنَّ أحدا لم يسبقهما إلى ذلك، شرعا بحماسة في تنفيذ مشروعهما وأقبلا عليه بوعي علمي واسع، ما جعل من بوابتهما مكتظة بالزوار والمهتمين بقضايا الطب، الأمر الذي حدا بهما إلى إصدار كتاب مشترك يتداخل فيه الطب بالتاريخ العلمي والفن.

يناقش المؤلفان في العشرين فصلاً لكتابهما ما أسمياه بأروع القصص عن اكتشاف الأمراض الغامضة وطرق علاجها منذ زمن ابن سيناء وحتى يومنا الراهن (الطاعون، والخناق، والسل، ومرض البيري بيري، والملاريا، والتصلب الجانبي الضموري، ومرض الشلل الرعاشي وغيرها من الأدواء) وذلك إلى جانب الأمراض التي يشار إليها بوصفها علل غير جسمانية ولكنها تقع ضمن الحالات المرضية التي تضر بصحة الإنسان بشكل عام كالأمراض المعدية واضطرابات الدماغ والجهاز العصبي ومجموعة المتلازمات إضافة إلى الأمراض الوراثية.

لم يكن هدف بايفسكي وهوروجايا وضع كتاب مرجعي في الطب، يشمل نوعية الأمراض وأعراضها وتتبع مصادرها التاريخية والإحاطة بأدويتها وتجارب العلماء وبحوثهم العلاجية إلخ، بل ظل تركيزهما على أمور أخرى تنفتح على عالم الطب من زاوية جديدة، وتطل على جزئيات لا تلامس الأمراض في عصبها بالضرورة، ولكنها تؤثث الفضاء الطبي بمفهومه الأشمل والأعم؛ مثال على ذلك تتبعهما للصعوبة الكبيرة التي تواجه لجنة الاختيار والتحكيم في جائزة نوبل للطب، وآلية عمل اللجنة، ومنح هذه الجائزة المرموقة لأطباء وعلماء غير مُتوقعين. كما يتطرقان إلى عنصر المصادفة المؤثر في تطور الطب وابتكاراته، والطبيعة الفضولية للعلماء، وحب المُغامرة لدى الباحثين عن سبل العلاج، وينظران إلى الآثار المدمرة التي خلفتها الأمراض الجماعية على مجريات التاريخ، كما يسلطان الضوء على الآثار الفنية ودورها في الاكتشافات الطبية.

إنَّ أكثر ما يُثير الانتباه والمتابعة في كتاب بايفسكي وهوروجايا هو الجمع الشفاف بين تاريخ الطب والأعمال الفنية الكلاسيكية الراقية؛ نجد في الفصل الخامس المتعلق بمرض الدفتيريا (الخناق) ربطا بين هذا المرض بإسبانيا وفنانها الرائع فرانشيسكو غويا (١٧٤٦-١٨٢٨). فكما يلاحظ الباحثان فإنَّ ظهور هذا المرض، الذي يؤدي إلى حالات اختناق قاتلة، مرتبط بظروف غامضة عاشها هذا البلد. يقول المؤلفان: «لقد ظهر المرض في إسبانيا أول مرة عام ١٥٩٧ ثم في عام ١٥٩٩ وعام ١٦٠٠، ولكنه انتشر كوباء مدمر في عام ١٦١٣ ودخل تاريخ البلد حيث سمي ذلك العام، عام الخناق. وقد اكتسب هذا المرض تسميته العلمية (الخناق) من الإسبان الذين استنبطوه من طريقة العقاب الشائعة عندهم في العصور الوسطى حيث كانوا يطوقون المذنب بحلقة حول رقبته ثم يتم تقليص حجمها تدريجيا حتى الوصول إلى مرحلة الخناق النهائي» (ص: ١٠٩). وقد تركت لنا تلك الحقبة لوحات فنية تصور الإسعافات الأولية للمرضى، ولكن اللوحة الأشهر كانت بتوقيع الفنان الإسباني الكبير فرانشيسكو غويا وحملت اسم «لازاريلو دي تورميس» وقد رسمها بين أعوام ١٨٠٨-١٨١٢ حيث يصور فيها طبيباً يحاول إنقاذ طفل مصاب بالخناق وذلك بتخليصه من أغشية الحنجرة الرمادية. ويُعتقد أن غويا حاول بذلك تكريم ذكرى ولد له توفي بسبب هذا المرض.

في الفصل المخصص بالمرض المعرف باسم «شاركو - ماري - توث» (تيمنا بأسماء العلماء الثلاثة اللذين كرسوا حياتهم لدراسته) وهو مرض يضرب الجهاز العصبي في الجسم، يتناول المؤلفان أعمال الفنان الكلاسيكي الأمريكي «أندرو وايت» الذي عاش في القرن العشرين، ولا سيما لوحته المسماة «عالم كريستين»، وهي واحدة من أكثر الأعمال شهرة في تاريخ الفن التشكيلي الأمريكي. توجد هذه اللوحة الفنية التي تم إنجازها عام ١٩٤٨ في متحف الفن الحديث في نيويورك وتصور امرأة شابة ترنو إلى دار قصية وتحاول جاهدة إلقاء نظرة عليها بكامل ما تمتلك من قوة جسدية. المشهد يجري في يوم صيفي جميل. ومع ذلك، فإن هذه الصورة، التي قد تبدو جميلة وحسب لغير المختصين، تمتلك جانبا مظلما. فالشخصية الرئيسية للوحة هي صديقة الفنان وجارته، السيدة كريستين أولسون. لقد عانت السيدة كريستين معظم حياتها من مرض غامض أعاقها تدريجياً عن الحركة. ففي طفولتها ويفاعتها كانت تعيش حياة طبيعية وتفعل ما تريد: تركض في المروج وتركب الخيل وتتجول في الحديقة وتتنزه مع أصدقائها على الشاطئ. ولكنها ما إن بلغت عمر السادسة والعشرين حتى ساءت حالتها وأصبحت حصتها من المشي الطبيعي لا تتجاوز أربع خطوات، تطلب بعدها المساعدة. مع ذلك ظلت رغبتها في العيش واستكشاف العالم مشتعلة، الأمر الذي حدا بجارها الفنان أندرو وايت بتخليد حالتها في لوحة عبقرية.

يصف الفصل المتعلق بمتلازمة أنجلمان كيف تم تحديد السمات الرئيسية لهذا الاضطراب العصبي وذلك بفضل أحد الفنانين الطليان. القصة تبدأ حين زار طبيب الأطفال البريطاني

هاري أنجلمان في إجازته معرضا للفن التشكيلي في مدينة فيرونا الإيطالية وتجول في قاعاته «حتى توقف فجأة أمام صورة صبي رسمها الفنان الإيطالي فرانشيسكو كاروتا. ظل يحدق في هذا الوجه السعيد، فتحة الفم، وتلك العيون في هذه الرسمة الغريبة للأطفال، التي ما زال المؤرخون الفنيون يتجادلون في مصدرها: هل هي من إبداع الفنان نفسه أم أنه أعطى قلم رصاص لطفل الجيران؟ وقد عاد إلى ذهن الطبيب وهو أمام الصورة تلك الابتسامات الغريبة التي كان يراها في أوجه مرضاه من الأطفال، وحركاتهم الحادة المتشنجة، فكأنهم دمى تحركها قوى غيبية. هذه هي أوجه التشابه بين لوحة لكاروتا والواقع ولكن الأمر اختلط على فهم نقاد الفن»(ص: ٣١٢).

فباعتباره مستشارا لمجموعة من المستشفيات كان أنجلمان مهتمًا بعلم أعصاب الأطفال وخاصة بمرض التوحد لدى الأطفال، ومشاكل الذكاء، والإعاقة الذهنية لديهم. قبل زيارته للمعرض الفني الإيطالي، وفي أوائل الستينيات، جاءت إلى الطبيب ثلاث عوائل لإجراء فحوصات لأطفالها، وكان هؤلاء الأطفال مرتبطين بالبهجة، تراهم يضحكون ويبتسمون ويعرفون كلمات قليلة جداً برغم أعمارهم التي تقارب الخمس والست سنوات، وكان جل التواصل معهم يتم عن طريق الأوامر والإيماءات. كانوا يتحركون على حين غرة، لا يهدؤون، ولكن الأهم من كل ذلك هو أن نموّهم العقلي والبدني متوقف بشكل شبه نهائي. لقد خمن الطبيب أنه حيال مرض جديد ولكنه لم يستطع العثور على أي وسيلة لتشخيصه، وذلك حتى سافر إلى إيطاليا وتعرف على اللوحة الغامضة لكاروتا.

ومن الأمراض الغريبة التي توقف عندها الباحثان ما يعرف بمتلازمة ستندال التي تنجم عن صدمة عاطفية تسببها عادة الأعمال الفنية. يقول المؤلفان في هذا الصدد: «لأكثر من ٥٠٠ عام كان تمثال داود الذي هزم جالوت يحدق إلى السياح من علو خمسة أمتار. ستة أطنان من الرخام الأبيض الذي نحتته يد الفنان الإيطالي العظيم مايكل أنجلو تنتصب في أكاديمية الفنون الجميلة في فلورنسا، التي يمكن اعتبارها بؤرة لعدوى الاضطرابات النفسية التي تصيب السواح المتحمسين للفن والذاهلين بمنجزاته العظيمة، فبعض السياح وما إن تقع أعينهم على التمثال حتى يشعروا بنبضهم وقد بدأ يتسارع، وعضلاتهم

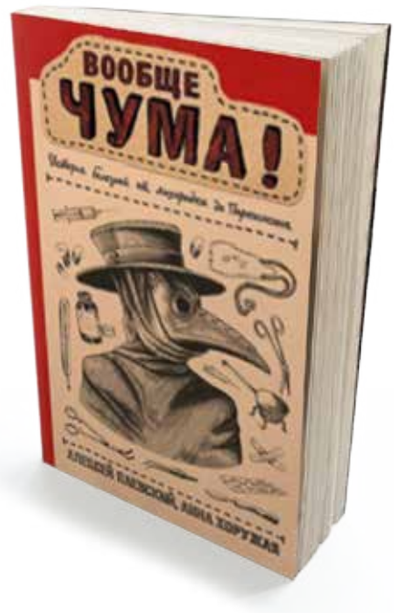

تضعف وتهن، ووعيهم بالأشياء يتضخم بشكل عكر وضبابي، ويصابون بدوخة إثر ذلك، ثم ينتهي بهم الأمر إلى السقوط أرضا. قد يكون رد الفعل هذا مدعاة لدهشة الزوار ولكنه ليس غريبا على العاملين في مجمعات متاحف فلورنسا الذين اعتادوا على هذا النوع من المشاهد، بل إنهم مهيأون للتعامل مع مثل هذه الحالات » (ص: ٢٢٨). تمثل السياحة، كما هو معروف، المورد الاقتصادي الرئيسي لفلورنسا حيث يزورها في المتوسط أكثر من مئة مليون سائح سنويًا، فتوجد فيها بالإضافة إلى معرض أكاديمية الفنون الجميلة عدد مثير من المتاحف يقدر بحوالي خمسين متحفا. وكالعادة يتم تنظيم زيارة سياحية للمدينة بحيث يمكن للمسافرين رؤية الحد الأقصى من التحف في إطار زمني محدود، فتمضي الجولة بوتيرة محمومة قد تشكل خطرا حقيقيا للسائح، فالتعب الذهني يلقي بتبعاته الصحية على المتجولين. وانطلاقا من هذا، لا يعد من قبيل الصدفة أن تضم قائمة النصائح والإرشادات التي توجهها المدينة لزوارها اصطحاب شريك في الرحلة يقوم بتقاسم المشاعر والانطباعات وتفريغها من شحنتها القوية وبالتالي حماية نفسه ورفيقه من الصعقات العاطفية المباغتة.

يركز المؤلفان كثيرًا على السير الذاتية لمكتشفي الأمراض الذين كرسوا سنينا طويلة من حياتهم لدراستها، فمن بينهم من واجه أسئلة صادمة حول الأمراض وهو مازال طفلا صغيرا. من أولئك ما يذكره الكاتبان عن الطبيب البريطاني جورج هنتغتون في الفصل المعنون ب «داء هنتتغتون» فبينما كان يتجول مع والده، وهو طبيب أيضا، عام ١٨٦٠ شاهد شيئا لم يفارق ذاكرته بعد ذلك أبدا، وأصبح همه وقضيته الطبية في حياته المهنية. يقول الطبيب في مذكراته: «عندما كنا أنا ووالدي نتجول في الغابة، على الطريق المؤدي إلى إيست هامبتون، صادفنا امرأتين، أم وابنتها، كلاهما طويلتا القامة، نحيفتان، تشبهان الجثث، وكلاهما منحنيتان بشكل غريب بينما تغطي التجاعيد وجهيهما. وقفت أمامهما في ذهول بل وأصابني الخوف من مرآهما. توقف والدي للتحدث إليهما وبعد ذلك تابعنا طريقنا. منذ تلك اللحظة لم يفارقني ذلك المرض ولم أكف عن الاهتمام به» (ص: ١٠١). يقول المؤلفان تعقيبا على هذه القصة: «من المؤسف، ورغم تطور العلم، إلا أنه لم يتم العثور على علاج لهذا المرض بعد. مع ذلك فالتطور مستمر ويتم تحسين طرق التشخيص وخيارات العلاج. فعلى سبيل المثال، أنشأ العلماء البريطانيون عام ٢٠١٧ في لندن مختبرا يتم فيه التنبؤ بموعد بدء هذا المرض ويستبق تطوره» (ص: ١٠٣).

إضافة إلى ما احتواه الكتاب من مواد علمية شيقة، فهو يستعرض أيضاً التطور المتسارع للطب في السنوات الأخيرة ويشير إلى وسائل وطرق العلاج التي من المرجح أن تصل إلى المرضى فعلياً في عام ٢٠٢٠ بأقصى تقدير.

أخيراً فقد حرص المؤلفان على إيلاء اهتمام واسع بشخصية الطبيب والباحث ومدى تأثيرها على عملية تطور الطب. فلنتأمل مثلاً ما كانت البشرية ستفقده لولا روح المغامرة التي تحلى بها الطبيب السويسري ألكسندر يرسن الذي انطلق إلى فيتنام واكتشف من خبرته هناك أعراض الخناق وجراثيم الطاعون؛ أو بدون تفاني المزارع زلمان واكسمان الحاصل على نوبل سنة ١٩٥٢ بعد أن كرس حياته المهنية في دراسة الميكروبيولوجية وذلك من شدة حبه للأرض.

الكتاب: الطاعون... تاريخ الأمراض: من الحمى إلى الشلل الرعاشي.
المؤلف: أليكسي بايفسكي وآنا هوروجايا.
الناشر: أ س ت /٢٠١٩ موسكو باللغة الروسية.
عدد الصفحات: ٣٢٠.

***أكاديمية ومستعربة روسية**

بناء الثقة من جديد
ريك بِينكستِن

عبدالرحمن السليمان *

لا يكاد يمر يوم إلا وتطالعنا وسائل الإعلام الغربية بأن الغرب قد أصبح مرهقًا، وأن الناس فيه قد أصبحوا يائسين. لقد أصبحت السياسة معقدة جدًا وفقد المواطن ثقته في الأحزاب التقليدية التي تصدرت المشهد السياسي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن. وتجزَّأ عالم الاقتصاد حول العالم وتقوقع في حسابات مصلحية معقدة نتيجة للعولمة الجارفة حتى استعصى فهمه على المواطن العادي.

وجاء التطور التكنولوجي السريع ليدق إسفينًا بين الأجيال ويحدث شرخًا بين الأجيال الناشئة وبين من تجاوزوا العقد الخامس من عمرهم حتى فقدت شرائح مهمة من المجتمعات الغربية عمومًا ومن المجتمع البلجيكي خصوصًا بوصلتها السياسية والاجتماعية والأخلاقية. لذلك يوجه عالم الأنثروبولوجيا البلجيكي ريك بِينكستِن كتابه هذا إلى «اليائسين والمحبطين والذين فقدوا بوصلتهم الأخلاقية» بهدف مواساتهم وطمأنتهم بأن ثمة بدائل للحالات التي سببت لهم اليأس والإحباط، تساعدهم في إعادة بناء الثقة التي تعينهم في مواجهة تحديات الحياة برؤية وعزيمة. يقتضي بناءُ الثقة من جديد الاختيار بوضوح بين القومية الشعبوية من جهة، والعالَمية اللاقومية من جهة أخرى. كما يقتضي تغييرَ العالم من خلال المشاركة الفعالة على مستوى الحي والاهتمام الحقيقي في العالم ومشاكله. من أمثلة هذه المشاركة الفعالة: المواد الغذائية. لقد كانت المواد الغذائية لقرون عديدة نشاطًا أُسَريًا محليًا. أما اليوم فتسيطر عليها صناعة الأغذية العالمية التي جاءت مع العولمة. ولعل في إعادة صناعة المواد الغذائية إلى السياق الأسري المحلي عنصر من عناصر توحيد المجتمع وإعادة بناء الثقة فيه على مستوى الغذاء. وهذا مثال من أمثلة كثيرة يطرحها الكتاب في سبيل إعادة بناء الثقة عند مَن جعلتهم العولمة وتحدياتها الكبيرة، بل وتغولها في سياقات كثيرة تمس الحياة اليومية للمواطن الغربي (وغيره)، يقعون فريسة سهلة لليأس والإحباط ثم لليمين الشعبوي المتطرف.

يتألف الكتاب مقدمة بعنوان «قصة أوروبا»، ومن جزءين عَنوَن الكاتبُ الجزءَ الأول منهما بـ «عناصر التحليل»، والجزءَ الثاني بـ «دعوة إلى السيناريوهات التقدمية»، ثم ختم الكتاب باستنتاجات عامة. ويستهل الكاتب الجزء الأول بكلمة موجهة إلى القارئ يقول فيها: «عزيزي القارئ، إذا واجهت في كتابي هذا نقدًا، فجيب عليك أن تكون سعيدًا لذلك، ذلك لأن حرية التعبير مستهدفة اليوم أيضًا كما كانت مستهدفة في الماضي». ويضيف: «لا يمكن لأي عاقل اليوم أن ينكر أن الغرب خلّف وراءه تاريخًا حافلاً بخنق الحريات وخصوصًا حرية التعبير عن الرأي المخالف». ويرى الكاتب أن «المحرقات والسجن والتعذيب في العصور الوسطى والتالية لها، واحتلال مناطق الذين يُختلف معهم في المعتقد، وأخيرًا الفاشية وشيوعية الدولة »، وما نتج عن ذلك من حروب ومآسٍ كونية، «إنما نشأت وتغولت في ثقافتنا» الغربية. لا يحصر الكاتب هذه التطورات السلبية بالغرب وحده، «ذلك أن الحالة في أماكن أخرى من العالم ليست أفضل بكثير» مما هي عليه في الغرب. لكن الكاتب يحصر الكتاب في الحالة الغربية لأن تأثير القارات الأخرى على النظام والسلم العالميين ليس بحجم تأثير الغرب عليهما. ويرى أن هذا التأثير كان ولا يزال بسبب قوة الغرب الاقتصادية والعسكرية. لكنه يستدرك قائلاً: «إن التفوق والشعور الزائف بالأمن» اللذين نتجا عن القوة الاقتصادية والعسكرية للغرب «في تراجع مستمر»، ثم يختم بالقول «إن الغرب يمر اليوم في مرحلة تحول واضحة».

ثم يشير الكاتب إلى نقطة تحول إيجابية نشأت نتيجة لأعمال المفكرين الإنسانيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر وكذلك نتيجة لعصر التنوير، «وهي ثقافة النقد التي صيغت فيما بعد في مبادئ أخلاقية وقانونية لترسيخ حرية الرأي وحقوق الإنسان وإدارة الخلاف بفضل نظام الشورى الديموقراطي». لكن هذه المبادئ تتراجع في العالم هي الأخرى نتيجة لتراجع القوة السياسية والاقتصادية للغرب الذي أعيد بناؤه بعد الحرب العالمية الثانية. وإذا كانت الحرب الباردة التي كانت منذ نهاية حرب فيتنام سنة ١٩٦٠ حتى هدم جدار برلين سنة ١٩٩٦ قد ألقت بظلالها على عملية إعادة البناء، «فإن الغرب بنى في أعقاب الحرب العالمية الثانية مجتمعًا مزدهرًا تطول فيه أعمار الناس، ويزدهر فيه العلم والاقتصاد، ويكثر فيه الاستهلاك، ولا تنشب فيه حروب» أو نزاعات مسلحة. ويربط الكاتب التحولات في الغرب بانهيار الاتحاد السوفييتي بداية التسعينيات من القرن الماضي ثم هدم جدار برلين الذي تلاه. «لقد ترجمت هذه التحولات نفسها بعولمة رأسمالية متوحشة ذات تطورات داخلية (عسكر في الشوارع الأوربية) وخارجية (حروب الخليج) لم تنته بسلام دائم». لكنها « أي تلك الحروب » «بقيت تلقي بظلالها على مناطق تتفكك شيئًا فشيئًا». وزادت موجات الهجرة نتيجة للنزاعات المسلحة وتغير المناخ في العالم من حدة هذه العولمة المتوحشة أصلاً. وصار الاقتصاد بمثابة الفزاعة التي يوظفها «خبراء اقتصاديون يظهرون من وقت لآخر» للتأثير في المواطنين بهدف إسكاتهم. وهكذا يبدو أن مشاكل العالم كله تختزل في الاقتصاد فقط. ويرى الكاتب أن المعلومات التي يقدمها الخبراء الاقتصاديون ومراكز الخبرة ليست دائمًا صحيحة، وأن المواطنين لا يفهمون دائمًا شروح هؤلاء الخبراء بسبب التعقيد الكبير في عالم الاقتصاد والمال الذي نعيش فيه. وعبر الكاتب « وهو عالم أنثروبولوجي مرموق » عن عدم ثقته المطلقة في المعلومات التي يقدمها خبراء الاقتصاد، وأنه يطمئن أكثر لموقع (Real-World Economics Review Blog) الذي يشرف عليه «علماء اقتصاد ذوو رؤية مخالفة للرؤية الاقتصادية السائدة، تمكنوا من وضع علامات استفهام حول القواعد والخيارات الأساسية للعبة الاقتصادية الدولية المعقدة». ثم يدعو الكاتب إلى التخلص من الحقيقة المسلم بها بأن الاقتصاد هو النشاط الوحيد المهم للإنسان لأن هذه الحقيقة المسلم بها تعني بأن «القيمة الرئيسة للإنسان» إنما هي «قيمة السوق» فقط. ويمثل الكاتب على خطورة هذه الحقيقة المسلم بها بنشاط منظمة (OESO) التي تضم أغنى أربعين دولة في العالم. تبحث هذه المنظمة باستمرار في المهارات الرياضية في تلك الدول من خلال البحث الحصري في مهارات الأطفال التسويقية (ما يعرف ببحث PISA)، ثم تصيغ بناء على النتائج توصيات للعمل بها في أنظمة التربية والتعليم لتلك الدول الغنية بهدف تنمية تلك المهارات التسويقية. إن «حلم» هذه المنظمة هو تطوير امتحان موحد للعالم كله، الشيء الذي يؤدي إلى ترسيخ تعليم المهارات التسويقية وآليات السوق. ويستنتج الكاتب بأن هذا يعني «أن التربية والتعليم تختزلان في تعليم الاقتصاد والتسويق في سياق تنافسي شرس». ويبرهن على نتائج هذه المقاربة بانتخابات بعض الدول المهمة في العالم «التي لم تعد تنظم حول رؤى اجتماعية وإنسانية واسعة» كما يقرر الكاتب، «بل حول السؤال فيما إذا كان النموذج الاقتصادي العالمي (كما ترى هيلاري كلنتون ويرى إيمانويل ماكرون على سبيل المثال) أو الاقتصاد الوطني (كما يرى دونالد ترمب وفيكتور أوربان على سبيل المثال) هو الأنموذج الذي يجب أن يحتذى به». انعكست هذه الرؤية الاقتصادية الضيقة على النظرة السائدة اليوم إلى مشكلة اللاجئين «التي تُختزل (عند الأحزاب الشعبوية القومية) في عنصر تهديد للازدهار الاقتصادي أو في أحسن الأحوال في تأمين ذلك الازدهار الاقتصادي كما ترى المستشارة الألمانية أنجلينا ميركل. والنظرتان محض اقتصاديتين. ويتوقف الكاتب في تحليله عند تراجع النظرة إلى الإنسان التي تبلورت بعد حروب قومية مدمرة والتي اعتبرته مواطنًا مساويًا لغيره من المواطنين في الحقوق والواجبات، وعند عدم جدواها في النقاش الدائر. تتمثل تلك النظرة في اعتبار الإنسان كائنًا بيولوجيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا ومعتقدًا وأيضًا اقتصاديًا. ويدعو الكاتب إلى الحفاظ على هذا التنوع داخل الكائن الإنساني وعدم اختزاله في نوع

واحد هو الاقتصاد كما يحدث الآن في الغرب، «لأن هذا الاختزال للإنسان في الاقتصاد عديم الجدوى مثله في ذلك مثل اختزاله في الدين عند بعض التيارات الأصولية في اليهودية والنصرانية والإسلام والهندوسية في الهند اليوم» كما يستنتج الكاتب. ويختم الكاتب بالقول بنبرة تقريرية إن التركيز المبالغ فيه جدًا على الإنسان المنتج اقتصاديًا يصبح مع مرور الوقت منفصلاً عن الواقع، ذلك لأن المكننة تقضي بسرعة فائقة على وظائف كثيرة من جهة، ولأن الإنسالة تحل « جزئيًا » محل الإنسان في ممارسة بعض وظائفه التقليدية من جهة أخرى. وهذا السبب بالذات أدى إلى نشوء طبقة البريكاريا، وهي طبقة اجتماعية متزايدة بدون تخصص اقتصادي أو تسويقي دقيق أو فريد يمكن أفرادها من تأمين موقع لهم في سوق العمل. أضف إلى ذلك أن مدة التعليم تطول وأن أعمار السكان تطول بحيث يصبح عدد كبير من السكان غير منتج اقتصاديًا. ويضيف الكاتب: إن مجتمعًا يتطور هكذا لا يمكن له «سياسيًا » أن يحافظ على تركيزه على العمل المأجور عليه ماديًا فقط، ذلك لأن نصف السكان سيكون ضد هذه الفكرة لأنهم سيكونون غير منتجين اقتصاديًا، إما بسبب أعمارهم المرتفعة، أو بسبب قلة تعليمهم أو تخصصهم الدقيق أو لأن الإنسالة حلت محلهم في ممارسة وظائفهم وأعمالهم التقليدية.

ويرى الكاتب في نهاية فصله هذا أن الساسة اليوم لا يستوعبون خطر هذا التطور الذي يؤدي إلى تهميش نصف المجتمع على المستقبل، لأن هذا النصف هو الذي يصبح القاعدة العريضة للأحزاب الشعبوية والحركات القومية المتطرفة. يتزامن التطور مع إعلان موت الإيديولوجيتين القديمتين: الليبرالية التقليدية والاشتراكية، هما وكل إيديولوجية انبثقت عنهما مثل حركة الديموقراطيين المسيحيين وحركة الديموقراطية الاجتماعية وحركة الليبرالية الاجتماعية، ومعهما كل الاقتراحات الرامية إلى التسوية الاجتماعية. والإيديولوجية الوحيدة المتبقية هي الليبرالية الجديدة بتياريها الاثنين: التيار الكوني العولمي الذي يعطي الفرد الحق المطلق في استغلال العالم وما فيه من مواد أولية وخيرات ويرى أن على المجتمع الدولي أن يسهل هذا الاستغلال؛ والتيار القومي الذي يربط الخطاب الاقتصادي الليبرالي بالهوية الثقافية للشعب أو الثقافة المحلية، وبوضع حدود واضحة لحقوق الآخرين.

ينطلق الكاتب في الجزء الثاني من كتابه، الذي عنونه بـ «دعوة إلى السيناريوهات التقدمية»، من ضرورة الاعتراف بالحالة العاطفية لذلك النصف الذي يشعر باليأس والخوف والذل أيضًا. ويقرر بأن «الاغتراب والخوف زادا وأن الشعبويين يثبتون كل يوم أن هذا الاغتراب وهذا الخوف يشكلان مصدرًا فعالاً ليس من أجل الوصول إلى السلطة فحسب، بل ومن أجل بث مشاعر الكراهية ضد الآخرين». ويرى الكاتب أن على التقدميين أن يعترفوا قبل كل شيء بتزايد قاعدة ظاهرة القلق في المجتمع بدلاً من فسلفتها أو تفسيرها ضمن أطر نظرية عقلانية معروفة. ويمثل الكاتب على ذلك بالنقاش الدائر حول مشاكل المناخ في العالم ويلاحظ في هذا الشأن بأن «تاريخ النقاش الدائر في المناخ اليوم يعلمنا بأن البراهين العقلية لوحدها لم تعد مجدية، وأنه لم يعد كافيًا «أن نعرف بأننا سنجعل الملايين من الناس

يغرقون في البحار بسبب الحروب، وأننا سنجذب إلينا الملايين من اللاجئين بسبب التطورات المناخية إذا لم نترجم هذه المعرفة إلى إجراء ملموس على الصعيدين العاطفي والعقلاني» كما يرى الكاتب. ثم يتوقف الكاتب عند النقطة التي يجب على التقدميين أن ينطلقوا منها، «وهي ما يربط الناس في المحيط المباشر لهم، والإنسانية جمعاء، ببعضهم خارج الأطر الإيديولوجية التقليدية »، وبالتحديد «ما يربط الناس ببعضهم في الرأس والقلب» معًا. بكلام آخر: يجب توظيف العاطفة إلى جانب العقل في عملية استعادة الثقة وبنائها من جديد. ويضيف الكاتب أن توظيف القلب في الأعمال الخيرية عمل مهم وجليل بجميع المعايير «حتى وإن بدا أن نتائج هذا التوظيف للقلب في التضامن قد أبطله قمار رجال المال ومغامرات الحكومات اليمينية التي تحتقر الفقراء وتمجد الأغنياء» في مجتمعاتهم. لكن الكاتب يستدرك بالقول إن العمل التطوعي الذي مبعثه «حب الإنسان الآخر» لوحده غير كاف ولا بد من مأسسته ضمن خطة عمل يُوظَّف فيها العقل والقلب معًا لتكوين مسار تقدمي أكثر فعالية مما هو عليه الآن.

ثم يوظف الكاتب مقاربته الأنثروبولوجية المفضلة وهي «معرفة الآخر وفهمه إنسانيًا» ويضيف: «عندما أقترب من أية مجموعة بشرية بهدف تعلم شيء من أفرادها وبالتالي التعرف عليها، فإني أنطلق دائمًا مما يجعل الناس » رغم كل تنوعهم « كائنات إنسانية» قبل أي شيء آخر. ثم يذكر الكاتب بعض الحالات الإنسانية المشتركة ومنها:

اشتراك جميع الناس في العالم في رغبتهم أن يحيوا « اليوم وغدًا » حياة كريمة. لكن العالم لم يعد مستقلاً عن بعضه وأصبحت مصالح الناس متداخلة ومشتركة. السؤال المطروح هنا نتيجة لذلك هو: كيف يُترجم تداخل المصالح هذا نفسه في الواقع؟ ينطلق الكاتب في إجابته على سؤاله هذا بأنه لا بد لكل أحد أن يتعلم كيف يتعامل مع التنوع المفروض نتيجة لتداخل المصالح وتشابكها من أجل العيش بسلام على الصعيدين المحلي والعالمي. ويضيف الكاتب: «وينبغي ترجمة هذه الحقيقة في برنامج تربوي وفي منظومة أخلاقية واجتماعية على المستوى المحلي».

اشتراك جميع الناس في العالم في الطعام والشراب. «لقد أصبح الناس في بلادنا يعيرون اهتمامًا كبيرًا للطعام والشراب الجيدين والصحيين والآمنين. وكلما تنشأ أزمة في قطاع الغذاء»، مثل جنون البقر والحمى القلاعية وغيرهما، «فإننا نشهد تأثيرًا كبيرًا لتلك الأزمة على الحياة الاجتماعية والسياسية» بسبب السرعة التي تنتشر بها المعلومات المتعلقة بتلك الأزمة على الصعيدين المحلي والدولي.

اشتراك جميع الناس في العالم في سعيهم الدؤوب لحماية أنفسهم من الكوارث الطبيعية، فلا يكتفون «بملاذ آمن» لهم يؤويهم من العواصف والبرد، بل يطمحون إلى «مسكن» مريح ذي مواصفات بيئية وصحية جيدة يمكنهم من الحياة فيه حياةً كريمةً وذلك دون إهمال الجانب الثقافي للبناء أيضًا.

اشتراك جميع الناس في العالم «في تنظيم رغباتهم الجنسية وإنجاب الأطفال ضمن أطر معينة يتفقون عليها».

اشتراك جميع الناس في العالم في عيشهم في مجتمعات «تخضع العلاقات الإنسانية فيها إلى قواعد تنظم تلك العلاقات الإنسانية» داخل تلك المجتمعات.

اشتراك جميع الناس في العالم في محاولتهم المستمرة لمنح حياتهم معنى روحيًا، «فنشأت » إلى جانب الديانات « أشكال جديدة من منظومات عقدية تعين الإنسان في تجاوز حدوده الضيقة إلى آفاق أخرى تعرفه بثقافات وسياقات أخرى» تمكنه من التعايش معها.

ثم يختم الكاتب كتابه بأهمية الغذاء بصفته عنصرًا موحدًا للإنسانية، فيستعرض علاقة الإنسان بالطبيعة في كوكب الأرض منذ نشأته، حيث كان مصدر الحياة فيه ما يجنيه الإنسان مما تقدمه الطبيعية من نبات وحيوان. ثم نشأت الزراعة المنظمة في العراق ومصر وغيرهما قبل اثني عشر ألف سنة، لتصبح اليوم صناعة مُعَوْلَمة يسيطر عليها أرباب المال في العالم الذين يتحكمون بآليات معالجتها وتجارتها في مناطق كثيرة من العالم. ويدعو الكاتب من جديد إلى التركيز على أهمية الانطلاق من العناصر التي يلتقي الناس على اختلافهم حولها، وتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية في التعاطي مع تلك العناصر المشتركة، وفي مقدمتها الموارد الغذائية، «ذلك أن الذين يموتون من التخمة ومما يسمى بأمراض الحضارة، في المناطق الغنية من العالم اليوم، «أكثر بكثير من الذين يموتون من الجوع» في المناطق الفقيرة منه.

الكتاب:

العنوان: "بناء الثقة من جديد"

الكاتب: ريك بينكستِن / Rik Pinxten

الناشر: دار إيبو / Epo. بلجيكا

اللغة: الهولندية

عدد الصفحات: ١٩٨ صفحة

سنة النشر: ٢٠١٨

رقم الإيداع الدولي: ٩٧٨٩٤٦٢٦٧١٢٩٤

***أستاذ الترجمة في جامعة لوفان في بلجيكا**

تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة
لي تشيانغ

حسام المغربي *

قبل فرز الأصوات في الانتخابات العامة التي جرت في هذا العام كان حزب المؤتمر الهندي وأحزاب المعارضة الأخرى قد أعربوا عن ذهولهم بسبب توقعات استطلاعات بثتها القنوات التلفزيزنية بفوز كبير لحزب بهارتيا جاناتا (بي جيه بي بالاختصار) الذي ينتمي إليه رئيس الوزراء مودي وحلفاؤه. وزعموا أنّ ثمة محاولة للتلاعب بالقرار لصالح حزب بهارتيا جاناتا عن طريق استبدال آلات التصويت في بعض المناطق. وثبوتا لهذه التهمة أشاروا إلى مركبات تحمل ماكينات تصويت جيدة منعها الناس حين وصلت مراكز الاقتراع. ولكن لجنة الانتخابات رفضت هذه المزاعم بتبريرات شتى.

بنية الكتاب ولمحة عن المؤلف

تنطوي ظاهرة تباين المكانة الاجتماعية وتقسيم المجتمع إلى طبقات على المصالح الحيوية لكل فرد، ويقدّم كتاب «تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة» لمؤلفه لي تشيانغ، دراسة كلاسيكية للتدرّج الطبقي في الصين المعاصرة، خاصة في تلك الفترة التي شهد فيها المجتمع تغيرات كبيرة. ويعرض بصورة تفصيلية المسار التاريخي والوضع الحالي وإمكانيات المستقبل لتقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة اعتمادا على التحقيق والدراسات الميدانية والبحوث والنظريات الأكاديمية الهامة.

ويشغل مؤلف العمل لي تشيانغ (مولود في عام ١٩٥٠ بالعاصمة بكين) منصب أستاذ قسم علوم الاجتماع بجامعة تسينغهوا ورئيس جمعية بكين لعلوم الاجتماع. وتشمل مجالات بحوثه تقسيمات الطبقات الاجتماعية والحراك الاجتماعي، وعلم الاجتماع الحضري وعلم الاجتماع التطبيقي وغيرها العديد من البحوث والدراسات ذات الصلة بالأوضاع المجتمعية. ونشر لي تشيانغ ما يزيد عن ٢٠ عنوانا منها «التحضّر المتعدّد وتنمية الصين» و«الدورات العشر للتقسيم الاجتماعي» و«العمال المهاجرون وتقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين»، إضافة إلى ٢٧٠ ورقة بحثية أكاديمية.

ويأتي «تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة» الذي يعد ملخصا أكاديميا لدراسات أعدّها الأستاذ لي تشيانغ على مدى سنوات، في ٢٤ فصلا؛ الفصلان الأول والثاني يستعرضان بشكل عام الطبقات الاجتماعية ويحلّلان الخصائص الأساسية لتلك الطبقات في الصين. فيما تتناول الفصول من الثالث إلى السابع التغيّرات الكبيرة التي شهدتها حركة تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين منذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام ١٩٤٩، وبشكل خاص بعد إطلاق العنان لتنفيذ سياسة الإصلاح والانفتاح عام ١٩٧٩، وتطرح هذه الفصول مجموعة نظريات منها «أربع تجارب رئيسية حول تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين» و«التحوّلات الكبيرة في الطبقات الاجتماعية والاقتصادية» و«تغيّرات العلاقة بين مجموعتي الفئة المركزية والفئة المهمّشة».

وتركّز الفصول من الثامن حتى الحادي عشر على تحليل بعض التحوّلات الكاملة في هيكل تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين خلال السنوات الأخيرة، ويستعرض خلالها عددا من النظريات منها على سبيل المثال «مجموعات المصالح الأربع في المجتمع الصيني» و«تحوّل بنية التقسيم الطبقي الاجتماعي في الصين من شكل ( ) إلى ( )» و«العوالم الأربعة للطبقات الاجتماعية الصينية». وخصص المؤلف الفصول من الثاني عشر إلى العشرين لمناقشة طبيعة الطبقة الوسطى والفئة متوسطة الدخل وغيرهما من القضايا. فيما ناقشت الفصول من الحادي والعشرين إلى الثالث والعشرين فئة الدخل المرتفع ودراسة الفجوة بين الأغنياء والفقراء في الصين. ويقدّم الفصل الأخير مراجعة شاملة للدراسات المعدّة حول التقسيم الاجتماعي في الأوساط الأكاديمية الصينية خلال السنوات الأخيرة.

وجهات نظر

يرى مؤلف الكتاب أنه عندما يتعلق الأمر بتقسيمات الطبقات الاجتماعية، غالبا ما يميل الناس إلى اعتباره مجرّد «عامل سلبي» في المجتمع، حيث يحذر علماء وباحثون من وجود مشكلة في التدرّج الطبقي. فعلى سبيل المثال، رصد زيادة تركيز الثروة بشكل كبير، وارتفاع درجة التمايز بين المناطق الحضرية والريفية والتفاوت الإقليمي، والفصل بين شريحة الدخل المنخفض ومظلة الضمان الاجتماعي، تعزّز الاعتقاد بأن تقسيمات الطبقات الاجتماعية تضر أكثر مما تنفع.

لكن يرى لي تشيانغ أن تقسيمات الطبقات الاجتماعية تتمتع بـ«دور إيجابي» حيث ترتبط حركة المجتمع من البنية التقليدية إلى أخرى اجتماعية حديثة بتقسيم الطبقات الاجتماعية، معتبرا أنه إذا لم يكن هناك صعود وهبوط فلن «تتدفق المياه»، ومن خلال هذا التشبيه تحديدا يمكن للمتابع للشأن الصيني فهم السبب الرئيسي الذي شجّع الزعيم الراحل دنغ شياو بينغ إلى تبني شعار «السماح لبعض المواطنين بالثراء أولا» في المرحلة الأولية من تطبيق سياسة الإصلاح والانفتاح.

ففي بداية الإصلاح والانفتاح طرح الحزب الشيوعي الصيني أهداف «الخطوات الثلاث» الاستراتيجية؛ الخطوة الأولى تحقيق ارتفاع إجمالي الناتج المحلي بمعدّل الضعف مقارنة بعام ١٩٨٠ وحل مشكلة الغذاء والكساء لأبناء الشعب؛ الخطوة الثانية تتمثّل في ارتفاع الناتج المحلي الإجمالي بمعدّل ضعفين بحلول نهاية القرن العشرين وبلوغ معيشة الشعب مستوى رغيد الحياة؛ أما الخطوة الثالثة فهي بلوغ معدل نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي مستوى الدول المتقدمّة من الدرجة المتوسّطة وتحقيق الرخاء النسبي لمعيشة الشعب وضمان إنجاز التحديث في أواسط القرن الحادي والعشرين. وحتى الآن تحقق هدفا الخطوتين الأولى والثانية قبل موعديهما، وتتجه الصين حاليا نحو بلوغ هدف الخطوة الثالثة.

مسار تقسيم البنية الاجتماعية

ويرى مؤلف عمل «تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة» أن الصين تضم مجتمعا ذا اختلافات كبيرة منذ العصور القديمة. ففي الحقبة القديمة، كان التقسيم عبارة عن «مواطنين» و«أناس متوحشين» للدلالة على سكان المدن وقبائل البدو الغزاة. وجاءت فكرة بناء «الأسوار» العملاقة في الصين. التي تشتهر بكونها الدولة صاحبة أكبر عدد من الأسوار في العالم . لتمييز الناس والفصل بينهم، ما حال دون تفاقم الفجوة الاجتماعية في المجتمع الصيني لكنه لم يعالجها.

ومع تأسيس جمهورية الصين الشعبية في الأول من أكتوبر ١٩٤٩، يقسّم المؤلف البنية الاجتماعية في البلاد إلى فترتين زمنيتين؛ فترة «التقسيم السياسي» وفترة «التقسيم الاقتصادي». حيث امتدت فترة «التقسيم السياسي» من

بداية تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ إلى ما قبل تنفيذ سياسة الإصلاح والانفتاح في عام ١٩٧٩، حيث كان المعامل الجيني لقياس العدالة الاجتماعي منخفضا جدا، فالمواطنون أكثر تكافؤا من الناحية الاقتصادية، ولكن كان هناك تباين واضح في التقسيم السياسي، صورته الأبرز ظهرت جلية في «نظام الهوية» الذي يمثّله تسجيل (الهوكو) لإقامة الأسر والانتماءات السياسية. وقد أثبت التطبيق أن هذا الهيكل الاجتماعي الذي يتخذ تحقيق المساواة في النتائج كهدف له مآله الفشل.

فيما كانت بداية فترة «التقسيم الاقتصادي» بعد تطبيق الإصلاح والانفتاح، حيث لخّص المؤلف جميع التحوّلات التي شهدها المجتمع الصيني كتغيّرات استهدفت بالأساس الهيكل الاجتماعي. فبعد الإصلاح والانفتاح، تفكّك «نظام الهوية» وتعزّز الحراك الاجتماعي بشكل كبير، وارتفعت مكانة التقسيم الطبقي الاقتصادي، لتتشكّل تدريجيا تقسيمات طبقات اجتماعية يسيطر عليها التقسيم الاقتصادي، واستبدلت الطبقات الاقتصادية تدريجيا بتقسيم الطبقات على أساس سياسي. وأحرز المجتمع تطوّرا وتقدّما كبيرين على مدى السنوات الأربعين الماضية، ما أثبت أن هيكل التقسيم الاقتصادي يتماشى مع الواقع الذي تعيشه الصين في الفترة الحالية.

وعلى الرغم من جميع الإيجابيات التي تناولها المؤلف، إلا أنه لم يغفل أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء كبيرة نسبيا، ومن السهل تشكيل تناقضات اجتماعية جديدة. ويرى لي تشيانغ أن الهيكل الاجتماعي في الصين يشهد مرحلة الانتقال من شكل "丁" إلى "土" وبعيدة كل البعد عن شكل «غصن الزيتون» الذي يتجلى في حقيقة أن أساس المجموعة القابعة في أسفل التقسيم الطبقي كبيرة جدا، والطبقة الوسطى ضعيفة للغاية، وثروة الشريحة الثرية تتراكم بسرعة كبيرة.

ولا ينعكس عدم المساواة في التنمية الاجتماعية حصريا على التنمية غير المتوازنة بين الحضر والريف، بل يمتد ليشمل كذلك المدن الصغيرة والمتوسطة الحجم والكبرى. ويكون تأثير سيفون للمدن الكبرى على السكان واضح للغاية، فيما تركيز الثروة الاقتصادية له تأثير ماثيو واضح، وبالتالي زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

طبيعة الطبقة الوسطى في الصين

فيما يتعلق بالطبقة الوسطى، يسرد المؤلف مجموعة معايير تشير إلى هذه الشريحة منها ×نصيب الفرد من الدخل المتاح للأسرة يتراوح بين ٢٠ و٦٧ ألف يوان سنويا ×امتلاك سيارة خاصة ومنتجات مالية ووحدة سكنية عبارة عن شقة أو فيلا ×معامل إنجل يتراوح بين ٠,٣ و٠,٣٦٥ ×تخصيص نفقات للثقافة والترفيه والسياحة كل عام

×التقييم الذاتي للوضع الاجتماعي في المستوى المتوسط أو أعلى ×الرضا عن الوضع المعيشي والثقة في المستقبل.

ويلخص المؤلف ثلاثة عناصر تميّز الطبقة الوسطى وهي المكانة الاقتصادية والوظيفة والتعليمية، والتي تخلق بدورها قنوات لتشكيل طبقات متوسطة جديدة في التعليم والتقنيات المهنية والسوق (يشمل السوق هنا سوق السلع وسوق العمل وسوق الائتمان المالي).

وعادة ما تقسّم العوامل التي تؤثر على ارتفاع أو هبوط دخل الفرد ومكانته إلى فئتين، الأولى هي المهارات الفردية، والأخرى عبارة عن العامل الفطري، مثل أصل العائلة أو تسجيل الأسرة التي لا يمكن أن يقررها الفرد. وأظهرت بعض البيانات الصادرة حديثا في الصين أنه من بين العوامل التي تؤثر على تغيرات المكانة والدخل، زيادة دور المهارات الفردية بشكل كبير، وانخفاض دور العامل الفطري، وهو عامل إيجابي هام للغاية، نظرا لأن رفع دور المهارات الفردية يؤدي بالأساس إلى تعزيز المهارات الفردية أو الاهتمام بقبول العمل الفردي الشاق، ما يعزز الكفاءة الاقتصادية والحيوية الاجتماعية بصورة واضحة.

ارتفاع المكانة الاجتماعية في الصين

يرى مؤلف كتاب «تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة» لي تشيانغ، أن الصين تمر بمرحلة تشهد فيها معظم الفئات الاجتماعية ارتفاعا كليا في مكانتها، وينعكس ذلك في تحوّل العمال المهاجرين إلى عمال صناعيين، والارتقاء بمستوى العمال الصناعيين في المناطق الحضرية إلى مجتمع يسيطر عليه ذوو الياقات البيضاء يشاركون في التقنيات المهنية والإدارة والمبيعات والأعمال المكتبية. وبطبيعة الحال، فإن هذا الارتفاع يحدث بشكل رئيسي في المدن الكبيرة أولا، لكن تظل المكانة المهنية هي الانعكاس الأول للمكانة الاجتماعية لأبناء الشعب، ليتضح أن الارتفاع الكلي للمكانة المهنية بمثابة مؤشر إيجابي للغاية.

ونوّه المؤلف في كتابه إلى أنه في الماضي كان ينظر الناس إلى التمايز الطبقي بوصفه المسبب الأول لعدم الاستقرار الاجتماعي. لكن لي تشيانغ يرى خلاف ذلك، حيث أشار إلى أنه إذا كان التمايز الاجتماعي عبارة عن استقطاب بسيط فإنه بالطبع ليس جيدا، لكن إذا كان «تجزئة» للمصالح فإن مصالح الناس المتنوّعة تسهل تباين الاهتمامات. ويضرب مثالا على ذلك، إنه في السابق كان معظم سكان المدن يعمل في مؤسسات مملوكة للدولة ذات أجور وطنية موحّدة، وتتطلب زيادة الأجور إصدار قرار من الحكومة المركزية، لكن الآن الأمر اختلف حيث تعمل الغالبية العظمى من العمال والموظفين والفنيين في مجموعة واسعة من الشركات والمؤسسات ذات الاختصاصات المتنوّعة، وزيادة الأجور تعود إلى إدارات هذه الجهات ولا يتعين عليها انتظار موافقة حكومية. وقد أظهرت دراسة حديث أن تمايز المصالح في المجتمع الصيني متنوّع، وهذا التنوّع في المصالح مفيد لضمان الاستقرار الاجتماعي من منظور علم الاجتماع.

ومن وجهة نظر شخصية، فإن ما يستحق الثناء هو أنه إضافة إلى التحليل النظري للظواهر الاجتماعية، فإن كاتب «تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة» قدّم اقتراحات حول كيفيّة تطوّر الطبقة الوسطى وزيادة فرصة الارتقاء بمستوى العمال المهاجرين وغيرهما من القضايا. وبالنسبة إلى القضايا الساخنة واتجاهات الإصلاح المتمثلة في «ما إذا كان يصعب على الشباب من الأسر الفقيرة تحقيق النجاح من خلال جهودهم؟» و«هل الطبقات الصينية الحالية ثابتة ومستقرة بالفعل ولا يمكن أن تهتز؟» و«ما موقع شريحة منتصفي العمر في منظومة العمل؟» و«كيف تتنافس المدن الصغيرة والمتوسطة الحجم مع المدن الكبرى للحصول على فرص التنمية؟» و«كيف توازن خطط التحضّر بين تنمية المدن والريف؟»، فلم يقدم مؤلف العمل إجابات مباشرة، ولكنه قدّم مجموعة من الأفكار الجديدة.

عنوان الكتاب: تقسيمات الطبقات الاجتماعية في الصين المعاصرة
المؤلف: لي تشيانغ
الصفحات: ٥٣٥
الناشر: شركة إس دى إكس المشتركة للنشر
سنة النشر: يوليو ٢٠١٩
اللغة: الصينية

*** باحث ومترجم عربي مقيم في الصين**

النفاق الكبير.. كيف يخون الإعلام والسياسة قيمنا!
يُرغن تودنهوفر

رضوان ضاوي *

يناشد يُرغن تودنهوفر مؤلف كتاب «النفاق الكبير.. كيف يخون الإعلام والسياسة قيمنا!» الإنسانية، ويكشف فيه عن الوجه الحقيقي للحضارة الغربية. وميزة هذا الكتاب تكمن في أنه مخصّص للباحثين عن السلام وللراغبين في التثقيف السياسي؛ من خلال تقارير المؤلف عن الدول التي دمرتها الحروب في الشرق الأدنى والشرق الأوسط بتشجيع من الغرب.

ذلك أن المؤلف قد صاغ تجاربه في شكل كتاب لجعلها في متناول جمهور واسع، بعد أن زار سوريا والعراق واليمن أكثر من مرة قبل وأثناء الحرب، التي بنيت على ذرائع كاذبة، كما تحدث مع أكبر عدد ممكن من مواطني تلك الدول المنكوبة، وكتب عشرات الدراسات مما أهله لكشف النفاق الكبير للسياسة الغربية، التي لا تهتم بحقوق الإنسان. وقد عمل المؤلف من العام ١٩٨٧ إلى ٢٠٠٨ نائبًا لرئيس مجموعة إعلامية دولية كبيرة، ومن العام ٢٠١٧ إلى ٢٠١٨ رئيس تحرير مجلة دير فرايتاغ الأسبوعية. وهو أحد أكثر منتقدي التدخل العسكري الغربي خبرة في الشرق الأوسط.

يقع الكتاب في واحد وعشرين فصلاً وتركيباً وبيبليوغرافيا مع مسرد لأسماء المناطق والأعلام، وينتهي كل فصل من هذا الكتاب تقريبًا بسؤال. نقرأ في هذه الفصول عن الرواية المضادة والمخالفة لرواية الغرب والإعلام الغربي الرهين للتجاذبات السياسية والذاتية. ويضيء الكتاب الحرب الدعائية ضد دول الشرق الأوسط والأدنى، وخطورة الاعتماد على مصادر من جهات منحازة، كما يشير الكتاب إلى الأشكال الحديثة من الهيمنة الثقافية اعتمادا على صحفيين يرافقون القوى الغازية.

وتعتمد السياسة الخارجية للغرب على كذبة مركزية، مفادها أنَّ التدخلات العسكرية الإرهابية تخدم الحرية والديمقراطية، بينما من الواضح أنها تخدم فقط المصالح الاقتصادية والجيواستراتيجية، ويؤكد يورغن تودنهوفر أن التدخلات العسكرية المستمرة هي المسؤولة في النهاية عن التطورات الكارثية في جميع أنحاء العالم -وغالبًا ما يتم ذلك بمساعدة الحلفاء في أوروبا أو حتى في البلدان العربية. ويعتقد المؤلف أنه بسبب أية حرب تنتشر أكاذيب وأنواع من النفاق، غير أن الحرب القذرة على دول بعينها في الشرق الأوسط بلغت مستوى من التضليل الشامل لم يشهد له مثيل في الذاكرة الحية للبشرية. «فالحرب الدعائية تنطوي عادة على نمط يمكن التنبؤ به على نحو محبط من شيطنة زعيم العدو وبالتالي أنصاره، ذلك بواسطة تركيزها على بث أخبار اتهامات بفظائع مرتكبة» - حسبما قال الصحفي الأسترالي فليب نايتلي. أما تيم أندرسون فقد كتب يقول: «كنت طوال حياتي أسمع الأكاذيب عن ذرائع الحروب وفقا لتقارير متناغمة في وسائل الإعلام الغربية».

وفيما يخصُّ الدول الناطقة باللغة الألمانية، يقدم لنا الكتاب قراءة مختلفة تدحض فرضية الإعلام الألماني المستقل والحر، فقد ساهم هذا الإعلام الألماني في نشر ما يستهدف مؤسسات تلك الدول المعنية بالعدوان، بقصد تحويلها إلى دول فاشلة. وجدير بالاهتمام أن الكاتب ألماني (غربي) وأن الكتاب صدر بالألمانية وبالتالي استهدف الجمهور الناطق بالألمانية. ينتقد يورغن تودنهوفر أكاذيب الغرب والمسؤولين الألمان، ويعتقد أن «معظم الألمان يرون النفاق ويعرفون أننا نكذب عليهم»، ذلك أنه لا يوجد مكان في العالم يقاتل فيه الغرب من أجل قيم حضارته. ولكن حصرا لمصالحه قصيرة النظر. وحول دور ألمانيا، يقول تودنهوفر: «إن الألمان ليسوا المحرك الرئيسي في كل هذه الحروب، لكنهم جزء من ذلك، بتصنيعهم السلاح للدول التي تشن حروبا في الشرق الأوسط. ولأن ألمانيا قوة يمكن أن تكون وسيطًا للتوسط في السلام بجميع النزاعات تقريبًا، ومعظم الألمان لم يعودوا يقبلون سياستها العسكرية في أفغانستان وسوريا والعراق، والتي تقتل عشرات الآلاف من المدنيين، بدعوى أنها عمل إنساني، من أجل تحرير الناس الذين يرقد أطفالهم تحت الأنقاض، ينظر معظم الألمان من خلال هذا النفاق إلى الإعلام الألماني والمسؤولين السياسيين ويعرفون أنهم يكذبون عليهم عندما يقال إن الأمر يتعلق بإسقاط ديكتاتور. إنها تتعلق بالأهداف الجيوستراتيجية! في حين يستطيع الإعلام الألماني إيقاف النفاق الدموي للسياسة الغربية باعتباره حارسا للديمقراطية، ولا يجب أن يسمح بخداع الحكام للشعب عن دوافع الحرب الحقيقية والتغني بتدخلات عسكرية مميتة، بدعوى حملها للدور العالمي «مسؤولية الحماية» و«الواجب الإنساني» و«فكرة البطولة»، فلا يجب أن تنطلي على نظام إعلامي حر وهي ليست من أخلاقيات الصحفيين الأحرار؛ فازدواجية المعايير في اعتبار القصف الأمريكي «جيدا»، وقصف الطرف الثاني «سيئا» دمر مدنا ثقافية عالمية هي الموصل وحلب. وكان غزو العراق «أكبر برنامج لتربية الإرهاب في العصر الحديث، وأكبر حقبة للعنف، وكانت ألمانيا متورطة معهم، ولا تزال، كداعم متوارٍ»؛ مما خلق إرهابا جديدا. ففي الحرب بالقنابل ضد السكان المدنيين منذ أفغانستان، إستراتيجية جعلت عدد الإرهابيين يزيد مائة ضعف. واليوم يطالب المؤلف بإظهار المعنى الحقيقي للحرب: «الحرب تخلق قتلى وجرحى وعنفا وإرهابا». كانت العراق دولة حية وثقافية غنية ومستقرة وآمنة نسبيا، وفي العام ٢٠٠٣، أعلنت الولايات المتحدة نيتها مهاجمة البلاد مرة أخرى؛ لأن صدام حسين كان يمتلك أسلحة دمار شامل كيميائية. كذبة واضحة -أغرقت العراق والمنطقة بأسرها في فوضى- وهزت أوروبا أيضًا. ويعتبر المؤلف حرب العراق غزوًا محضًا ومثالًا نموذجيًا على ما يفعله الغرب. «على مدار الـ٥٠٠ عام الماضية، لم نقم بغزو العالم بقيمنا وبراعتنا، ولكن بوحشية لا حدود لها، يعلم الجميع ذلك في آسيا، وإفريقيا، لكننا لا نعرفه حقًا. يعرف العالم كله أننا في كل هذه البلدان لم نحارب من أجل قيمنا، ولكن من أجل مصالحنا، من أجل السلطة، والأسواق، والمال، والنفط وما فعلناه، وما فعله الغرب بمهارة كبيرة -ولعدة قرون- ليس أمراً جيدا»، بينما أمريكا وبريطانيا تجنيان سنوياً مليارات الدولارات من مبيعات الأسلحة إلى دول الشرق الأوسط، وهو أحد الأسباب الرئيسية لعدم انتهاء الحرب.

... إنَّ هذا الكتاب غير موجَّه للألمان الغارقين في الأساطير الغربية، إنما للذين يحاولن فهمها؛ فقد أصبحت القصص الغربية في الإعلام الألماني مسرفة ويتوجب مجابهة التضليل الإعلامي في ألمانيا والغرب،

حيث يصبح الصحفيون مدافعين شرسين عن الحرب الإنسانية ويتنكرون لأي منطق أو مبدأ فتسري في أخبارهم الأكاذيب التي تؤدي إلى تصور تلك البلدان على أنها قابلة للاستعمار. يؤكد تيم أندرسون ومؤلف هذا الكتاب على أن العبرة من كل هذا تقتضي أن نحذر القصص المنحازة، وتحثنا على البحث عن الأدلة الموضوعية، ونحذّر نفاق الغرب وخداعه للرأي العام، وهو في نفس الوقت يقدم نداء صريحا ومؤكدا من أجل السلام، فالصمت ليس خيارا فـ«هؤلاء الأطفال هم ضحايا السياسة العالمية».

ويؤكّد المؤلف أنّ نفاق السياسة الغربية يهدد ديمقراطية ألمانيا. يتم الكذب على السكان في مسألة الحرب والسلام، وبالتالي يستثنون من كل صناعة القرار في الديمقراطية الحقيقية. الكثير من الناس يشعرون بهذا، إنهم يواجهون الأحزاب المعادية للديمقراطية. والشعبوية والعنصرية والقومية، والعنصرية، والوطنية لا تحل أية مشكلة؛ ممثلوها يميلون إلى رمي القيم المنافقة والملوثة لحضارتنا في الخارج والمتابعة العلنية لسياسة أكثر فائدة. والغرب يحتاج ثورة إنسانية خالية من العنف. بدل استغلال قيم حضارته من أجل تعنيف شعوب وثقافات أخرى، يتوجب عليه تنفيذ وعوده عبر قرون من أجل الإنسانية. وشعوب أخرى وثقافات معاملتها تماما كما يريد هو أن يُعامله الآخرون. وأينما تعلق الأمر بالمصالح، يتوجب على السياسة أن تقول هذا علناً. إذا كانت هذه المصالح معقولة ومشروعة ولا تنهض على أنقاض حقوق الآخرين، فلا يوجد سبب لإخفائها. وسائل إعلام ألمانيا يتوجب عليها لعب دور مركزي في الثورة الإنسانية. في الغالب هي تبدو مرتبطة بالقوى، تغطي على نفاقها، بدلا من أن تعريها وتفضحها. بينما سقوط حضارة يبدأ مع فقدانها للمصداقية، وحين يستمر الغرب في نفاقه يتوجب على الإعلام منع هذا، هذا يستحق مجهودا من أجل الدفاع عن الحرية والمساواة والأخوية ومن أجل حقوق الإنسان والديمقراطية وسلطة القانون عبر حركة سياسة جديدة.

يقدّم الكاتب ثلاثة نماذج من الصحافيين الألمان الذين يدعمون «التدمير مع إستراتيجية الفوضى الإجرامية للغرب». هلل جوزيف يوفه المحرر بصحيفة دي تسايت، لحرب الناتو على ليبيا، وأطلق عليها «حالة السعادة» كما تمنى بشغف منقطع النظير رؤية تدخل عسكري غربي فيها. وكتب في ٢٠١٣ أنه «يجب ضرب محطات توليد الكهرباء، ومراكز الاتصال، والمصانع، والجسور، ومن الأفضل: ضرب محطات توليد التزود بالوقود، والمطارات والموانئ، ويجب أن تكون الضربة قاتلة». أما

شتيفان كورنليوس مدير السياسة الخارجية لصحيفة جنوب ألمانيا، فقد وصف قصف الناتو لليبيا «بالقرار الشجاع، ورفض ألمانيا للحرب ضد العراق «بالغبي» و«الخاطئ»، وتوعّد ألمانيا بالعزلة. في حين تحدث تولد كولر محرر بصحيفة فرانكفورت الشاملة، عن واجب حماية القيم الغربية بأرتال عسكرية؛ فبدون ضحايا لا يمكن الانتصار في هذا القتال، وأكد على شرعية الحروب الغربية في الشرق الأوسط والأدنى. ويتساءل المؤلف: ما الفرق بين هؤلاء الصحفيين الألمان وزملائهم في نيويورك تايمز أو الواشنطن بوست؟ -ويقول إن «جوته احتقر الأشخاص الذين يجلسون في غرفة دافئة وينشدون أغاني الحرب».

وعبر المؤلف عن صدمته من خبث رجال السياسة الغربيين وخبث الإعلام الألماني، الذي استحق «السعفة الذهبية لازدواجية معايير الأخلاق». يمدح المؤلف الصحفيين الألمان بالقول إن هؤلاء الصحفيين الثلاثة لا يمكنهم التحدث باسمهم، ذلك أن أغلب الصحفيين الألمان يقفون إلى جانب السلام، لكن مثل هؤلاء الصحفيين الثلاثة يمثلون وسائل الإعلام الرائدة والقوية، وهم قادة الرأي الألماني، كما أنهم شركاء في اتحاد الناشرين لمشروع الهيمنة الغربية على العالم، أما أن يكونوا شركاء في الاتحاد ضد النفاق الغربي فلا يمكن؛ ذلك أن الإعلام القوي ينجذب إلى السلطة القوية. إن أكبر مشكلة هي شعور هؤلاء الصحفيين بالراحة بالقرب من السلطة، وفتنوا بأجواء السلطة، فنسوا دورهم المتمثل في دور الحارس، وحين يقومون بمحادثة طويلة مع أحد الساسة، لن تجد في مقالاتهم كلمة نقد واحدة. لقد عمل المؤلف عشرين سنة في السياسة واثنين وعشرين سنة في الإعلام، وعرف عددا لا يحصى من الصحفيين المؤثرين في الغالب، ويحس بالراحة معهم دائما، وهم يقفون دائما مع السلام، حتى في الصحف الرائدة والكبيرة. فكيف لا يتأتى لنا سماع صوتهم في فترات حاسمة إلا نادرا؟ ولماذا يصعب عليهم تموقعهم ضد مؤيدي الحرب اللامسؤولين؟ إن السبب يكمن في كون هؤلاء الصحفيين محكومين بسياسة دور الصحافة ورؤساء التحرير، وهم غير محميين من تدخلاتهم، والقانون يضمن حرية الصحافة الخارجية، لكنه لا يضمن حرية الصحافة الداخلية. رغم ذلك يصر المؤلف على توجيه نداء، ويضم صوته إلى صوت فريدريش شيللر حين قال: «امنحوا حرية التفكير، سيدي»، أو ما يسميه المؤلف «التسامح النشري».

قام المؤلف بتقديم ملخَّص تجاربه في نهاية هذا الكتاب على النحو التالي: إن تاريخ الغرب تاريخ وحشية وتاريخ نفاق كبير. وفي كل مكان في العالم لا يقاتل الغرب من أجل قيم حضارته، بل في النهاية من أجل مصالحه قصيرة النظر، من أجل السلطة، والأسواق، والثروة. وغالبا ما يستعمل طرقاً إرهابية، ولا يهتم بآلام الشعوب الأخرى والثقافات. ومن أجل تأكيد مصالحه، يغلفها الغرب بقيم نبيلة، مثل حقوق الإنسان والحرية والمساواة والأخوّة والديمقراطية، خاصة سياسته الخارجية التي تُعدّ تغليفاً خادعا. وسياسة المصالح المرتكزة على الذات الغربية والمغلفة بالقيم، وجدت في مصالح النخبة الحاكمة. لكنها لا توجد في مصالح شعوب هذا العالم. وحتى إنسان أوروبا يتوجب عليه دفع ثمن سياسة مصالح النخبة الحاكمة القصيرة النظر بواسطة حروب قذرة. وحين يدفع الغرب بسياسة المصالح قصيرة النظر عالميا، يعايش كل كوارث تاريخه من جديد، فلا يمكن دهس مصالح الشعوب الأخرى والثقافات بلا نهاية، دون أن يدفع هذا الغرب ذات يوم ثمنا دمويا.

- الكتاب: "النفاق الكبير.. كيف يخون الإعلام والسياسة قيمنا!".
- الكاتب: يرغن تودنهوفر.
- الناشر: GmbH، برلين، ط ٢، ٢٠١٩، بالألمانية.
- عدد الصفحات: ٣٠٥ صفحات

*** باحث في الدراسات الثقافية المقارنة - الرباط/المغرب**

فتاة من كاتمندو

علي الرواحي *

هذا الكتاب ليس رواية، فكل الأحداث والشخصيات واقعية، حيث لم يتم تغيير الأسماء، ولا الأمكنة، ولا التواريخ، فالسردية هنا قامت بعد الكثير من المَقابلات المَختلفة مع هذه الشخصيات، وزيارة هذه الأماكن، كما تمَّ استخلاص هذه الأحداث من وثائق كثيرة تزيد عن ثلاثين ألف وثيقة.

هكذا يبدأ المؤلف كام سيمبسون وهو الصحفي الاستقصائي والكاتب الذي عمل في الكثير من الصحف المرموقة مثل بلومبيرغ، وول ستريت جورنال، وشيكاغو تريبيون، وغيرها، كما حاز على الكثير من الجوائز في مجال التحقيقات الصحفية، وتقلد الكثير من المناصب والمهام المختلفة في مسار حياته الحافلة بالأنشطة والمُغامرات، حيث يبدأ مقدمة هذا العمل أو السيرة الذاتية التي تتحدث عن فتاة من العاصمة النيبالية كاتمندو تبحث عن العدالة واثني عشر رجلاً لقوا مصرعهم في حادثة غامضة ومُتداخلة، وذلك على مدى ثلاثة أجزاء وملحقين.

يبدأ العمل من أغسطس ٢٠٠٤م، وذلك عندما غادر اثنا عشر رجلاً من النيبال قراهم للعمل في الأردن في فندق خمس نجوم، كما تمَّ كتابة ذلك في العقود الوهمية، غير أنَّ واقع الحال لدى وصولهم إلى المكان الجديد لم يكن كذلك، حيث تم اختطافهم في الأردن ونقلهم إلى العراق للعمل في قاعدة عسكرية أمريكية وتحديداً في شركة هاليبرتون الشهيرة، اختطفتهم جماعات إرهابية في العراق وقتلتهم، بطريقة بشعة للغاية، ولكنها ليست غريبة عن مسار هذه الجماعات في التعامل مع الكثير من الرهائن، الأمر الذي جعل أرملة أحدهم بالتَّعاون مع الصحفي الشهير سيمبسون تأخذ القضية على محمل الجد، مما أدى إلى فتح تحقيق كبير وواسع في هذا الشأن لتصبح هذه الأرملة بطلة القصة وذلك من خلال جهودها الكبيرة مع مختلف المؤسسات العالمية في سعيها الحثيث للوصول إلى العدالة ولكشف ملابسات هذه القضية التي لم تجد التغطية الإعلامية الكافية مُقارنة بالكثير من القضايا والأحداث المشابهة لها.

أصبحت لاحقًا صورة كامالا وهي تحمل ابنتها كما في الغلاف الصورة الأيقونية لهذه الحادثة المأساوية، كما نشرتها صحيفة شيكاغو تريبيون فيما بعد، كما نجد أن هذه الحادثة قد انتشرت في الكثير من الوسائل الإعلامية المختلفة، وعن طريق وسائط كثيرة منها ما هو مرئي، أو مقروء وغيره.

بالرغم من أهمية هذه السردية المؤلمة، إلا أن هناك تفاصيل كثيرة حدثت قبل سفر هؤلاء الأشخاص البسطاء للبحث عن العمل، وتفاصيل لا تقل أهمية وكثيرة أيضًا حدثت مع كامالا ماجارا التي نذرت نفسها وحياتها لمعرفة ما حدث بالتفصيل.

ولمعرفة السبب الرئيسي لتبني كامالا هذه القضية من الضروري معرفة أن جت بهادور، زوجها، وأحد الأفراد المتوفين في سياق هذه الحادثة المأساوية، كان يسعى كبقية الآباء للعمل من أجل تحسين الظروف المعيشية للعائلة: زوجته كامالا وطفلته. فعندما رأى إعلان العمل سارع إلى التسجيل فيه، بالتعاون مع الوكيل أو مستشار العمل الموضح في الإعلان، كما أنَّ إعلان العمل بالرغم من ظروف موقع العمل كانت صعبة، إلا أن الدخل الشهري كان عالياً، بما يكفي لإغراء الكثير من الأفراد في مختلف الطبقات للعمل فيه، لم يكن جت بهادور يعرف حقيقة الإعلان، أو تفاصيل الشركة القائمة عليه، والتي تعتبر وكيلاً محلياً يسعى لتوظيف العمالة الرخيصة في مناطق الحروب والتوتر، ومن ضمنها العراق. لاحقاً، تم قبول جت بهادور في الوظيفة، غير أنَّ غيابه الذي استمر لمدة ٤٨ يوماً، وعدم تواصله مع أفراد عائلته، أثار الكثير من القلق لدى زوجته، والصدمة كانت عندما تمَّ ذكر اسم زوجها في الإذاعة المحلية بأنه من ضمن الأفراد المقتولين في العراق. في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة تحديداً، تغيرت شخصية كامالا نهائياً، وإلى الأبد، عندما قالت «أعتقد أنَّ حياتي انتهت».

لم يكن المال متوفرًا لدى كامالا للشروع في مسار هذه القضية، غير أنَّ قضاءها وقتاً كافياً في تولسي مهر الأشرم، وهو ملجأ باسم غاندي في العاصمة النيبالية كاتمندو، كان كافياً للبدء في هذه القضية، وذلك بالتعاون مع بقية الأرامل زوجات المقتولين في نفس الحادثة، كما تلقت مساعدات من أطراف أخرى كثيرة بالإضافة إلى عملها في مهنة الخياطة، حيث إنها ساهمت في مساعدتها من الناحية المالية على رفع قضية في المحاكم الأمريكية على شركة التوظيف الأمريكية التي استأجرت زوجها، وذلك بالتعاون مع الصحفي الاستقصائي مؤلف هذا العمل.

غير أنَّ المحكمة الأمريكية طلبت تعويضها بمقابل مادي مقابل إغلاق ملف هذه القضية، في حين أن موقفها وهدفها ليس المال، وإنما العدالة كما أصرت على هذا المبدأ بشكل كبير فيما بعد، الأمر الذي جعل المحكمة تُجبر هذه الشركة على دفع تعويضات مالية لعائلات جميع الضحايا في العراق.

لاحقاً، منعت الحكومة النيبالية ذهاب المواطنين للعمل في العراق لكنها رفعتها دون معرفة كافية بالأسباب أو توضيح لما حدث وراء الكواليس، وبالرغم من الحظر الجزئي فإن النيباليين يذهبون للعمل هناك، ربما إلى حد كبير بسبب الإغراءات المالية غير مكترثين للمخاطر الكثيرة التي تكتنف هذه الأنشطة في العراق، وتحديداً في الفترات السابقة.

أثارت قصة هذا العمل بكل تفاصيلها المأساوية الكثيرة، العديد من التساؤلات الموجهة للحكومة، حول معرفتها بقضية الاتجار بالبشر، أو الإجراءات التي من الممكن أن تتخذها لجعل وجهات العمل للمواطنين النيباليين آمنة، غير أنَّ الرد الرسمي لم يكن كافياً أو لا وجود له في هذه القضية.

يتحدث هذا العمل بصورة غير مباشرة عن شركات التوظيف العابرة للقارات، والتي لا تراعي الظروف المختلفة للعُمال، ضاربة بعرض الحائط بكل التحديات والمخاطر الإنسانية التي يواجهها العاملون في الكثير من المهن المختلفة، حيث إن الجشع وانعدام الجانب الإنساني وليست الرغبة الطبيعية في الربح من جانب هذه الشركات يعتبر المحرك الرئيسي لهذه التحركات. كما أن البحث عن العمالة الرخيصة، وغير المتعلمة بالشكل الكافي، والاتجار بها في سوق العمل والمراهنات، يجعل هذه العمالة عُرضة للانتهاكات الحقوقية، وغموض عقود العمل، وعدم مراعاة الجوانب الإنسانية الضرورية.

في مسار هذه المأساة تداخلت الكثير من التفاصيل، بين طلب الفدية من قبل بعض الجماعات الدينية المتشددة في العراق، وبين تلك الرغبة الكبيرة في الحصول على المال من قبل الشركات الرأسمالية الكبيرة التي تتاجر، وتتعامل مع البشر بمنطق السوق، منطق الربح والخسارة، وعدم الاهتمام بمخاطر العمل وظروفه المختلفة.

تكشف تفاصيل هذا العمل بشكلٍ كبيرٍ عن أن العولمة لها جانب سيئ جدا، كما توضح أن شركات التوظيف الربحية تنظر للبشر بوصفهم أدوات للربح فقط، كما تُبين بأن أسواق هذه الشركات في تزايد مستمر، وهي تُركز على

الدول الفقيرة، وعلى المواطنين ذوي الدخل والتعليم المحدود، كما أنها تكشف عن أنَّ أصحاب رؤوس الأموال، أو المصانع التي يتم إرسال هذه العمالة الرخيصة للعمل بها، لا يعرفون عن ملابسات هذه العقود، أو بمعنى أصح لا يكترثون بها، ولا بالظروف المحيطة بالعاملين بها. ذلك أن معظم أسواق العمل العالمية، والكثير من أصحاب رؤوس الأموال حول العالم، يجلبون العمال من خلال شركات عالمية، أو من خلال شبكات عمل ووساطات معقدة، ومختلفة، وفي الكثير من الأحيان غامضة ومجهولة.

فهذه الشركات، ومن خلال الوسطاء، تصل إلى أماكن كثيرة، ومختلفة من بقاع العالم، كما أنها تستطيع الوصول عن طريق الوسطاء إلى المدن الفقيرة، في الكثير من الدول مثل النيبال، وكمبوديا، وميانمار، وغيرها؛ حيث إن هذه الأسر أو هؤلاء العُمال، يشترون العقود من الوسطاء، مقابل أجور مكلفة، ينبغي سدادها لفترة زمنية طويلة، ومقابل قروض كبيرة يحتاج سدادها فترات زمنية طويلة، والرابح الأكبر هي شركات الوسطاء المختلفة في العالم. بهذه الطريقة تدار أسواق العمل العالمية، وتدار الحروب في نفس الوقت، حيث تعتبر هذه الأسواق مكاناً خصباً لانتهاك حقوق الإنسان، والاتجار بالبشر بالدرجة الأولى. وهو ما يُفسر إلى حد كبير شيوع مصطلح «خصخصة الحرب»، أو «مرتزقة الحروب». حيث نجد شركة هاليبرتون على سبيل المثال تمتلك المئات من الجيوش اللامرئية والتي تعمل بعقود عمل في التنظيف، وحفر الخنادق، ونقل الشاحنات إلى المخازن في الصحراء وغيرها من المهام الخطرة وغير المجزية مقارنة مع مخاطر العمل.

في هذا السياق، يدُين المؤلف من خلال بحث ميداني لفترات طويلة، الرأسمالية الجشعة بكل أبعادها المختلفة، تلك التي لا ترى في الإنسان غير سلعة تُباع وتُشترى بأرخص الأثمان وأبخسها؛ حيث إن هذه الشركات وتحديدا هاليبرتون أصبحت ومنذ حرب فيتنام أكبر شركة بناء في العالم، وهو الأمر الذي تعزز في العراق لاحقاً.

لا تقتصر آثار العولمة على الحروب، بالرغم من قساوتها وفظاعتها، بل تستمر بجانبها السلبي في سوق العمل، والاستعباد الذي يُمارس على البشر ممثلا في استغلال القوى العاملة من قبل شركات التصنيع الكبيرة، تلك التي تنتج ملايين الأجهزة الإلكترونية التي يتم تداولها في كل بقاع العالم، حيث إنها تخضع لظروف عمل قاسية، وغير إنسانية، وهي تتجسد في الملابس التي نرتديها على أجسادنا كما يقول المؤلف.

حسب هذا الكتاب، نجد أن مسار الأحداث للبحث عن العدالة قد اتخذ مناحي واتجاهات مختلفة، فهناك الكثير من الخفايا التي تستوجب التنقل، والبحث

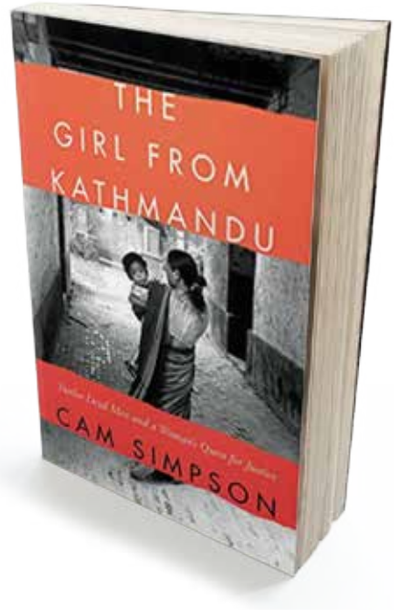

في الكثير من العواصم المختلفة، مثل بغداد، والأردن، وواشنطن، وهيوستن، وكاتمندو العاصمة النيبالية، وغيرها من المسارات والأماكن المختلفة. ذلك أن القانون لا يدعم في الكثير من البلدان محاكمة هذه الشركات العابرة للحدود كما أشار المؤلف، بل ينبغي العودة لمقر هذه الشركات، وهو هنا واشنطن، أو هيوستن، وغيرها، لرفع القضية، والبحث عن ضوء في هذا النفق المظلم. بالإضافة لذلك، نجد أن قوانين الكثير من البلدان تعاني من نقص فادح، وقصور كبير في هذه التشريعات، فالمقر الرئيسي لهذه الشركات خارج الحدود السياسية للدولة، والأنشطة التجارية تحدث في دولة أخرى، غير أن هذه الدولة لا تستوعب هذا التشطي في القوانين، ولم يتم تحديثها من قبل المشرعين، الأمر الذي ينعكس بشكلٍ مباشر على المتضررين من أنشطة هذه الشركات من جهة، ويضع هذه الشركات فوق المساءلة والمحاسبة من الجهة الأخرى، وهو ما ترفضه الكثير من الدساتير والقوانين في بعض البلدان.

في هذا السياق، من الضروري الحديث عن تأثير هذه الشركات على الاقتصاد العالمي، حيث تتسم بتعدد المراكز والقيادات فيها، كما أن لها الكثير من الأفرع والمكاتب خارج البلد الأم، وهو ما يعني بأنها فوق القوميات؛ لأنها لا تلتفت لهذه الاختلافات الثقافية التي تزخر بها مختلف المجتمعات والدول، بل نجدها في الكثير من الأحيان تستخدمها، أو توظف هذه الاختلافات لتنويع المنتجات، وإبراز الطابع العالمي لها. وفي الكثير من الحالات نجد أنها تنتهك حقوق العُمال، ولا تحافظ على الجانب الإنساني للعامل، بل تتعامل معه بصفته آلة، أو سلعة، ينبغي التعامل معها، أو بذل أقصى الجهود للحصول على أكبر قدر من الإنتاج في وقت قصير، وبسرعة عالية.

بالإضافة لذلك، وفي فترة سابقة لعام ٢٠٠٤م، وتحديدا في عام ١٩٩٣م كان جوري -وهو أحد الشخصيات التي قتلت لاحقاً - قادماً من قرية صغيرة في جبال النيبال الشاسعة، والخضراء، يتبع حقول الأرز المزروعة في الجبال كما هو الحال في كل عام، حيث إنَّ الظروف المالية الصعبة تستوجب البحث عن العمل، أي عمل كان، والقبول به بالرغم من المستوى، والمصاعب التي تكتنفه. وبالرغم من الجانب المجهول فيه، نجد أنَّ رحلة البحث ليست سهلة، إذا أخذنا في الحسبان المستوى التعليمي للمزارعين الذين أنفقوا جزءًا كبيرا من حياتهم في الزراعة البسيطة، أو العمل في الحرف المُتواضعة، الأمر الذي يؤثر بشكل جوهري على مستوى الوعي، ونوعية العمل، والمعرفة بالحقوق، مما يجعل هذا النوع من العُمال سهل الاصطياد، نتيجة للأسباب السابقة من جهة، وعدم الوضوح الذي تُمارسه شركات التوظيف الانتهازية.

علاوة على ذلك، وفي ختام هذا العمل نجد الكثير من الدروس التي من الممكن الخروج بها فيما يتعلق بإصرار كالامار على التقصي وبذل الكثير من الجهود في سبيل البحث عن العدالة وتحقيقها، بالرغم من المصاعب التي تقف في وجه هذه المهمة الصعبة، وبشكلٍ خاص إذا أخذنا في الحسبان، التعقيد الكبير الذي تتسم به هذه القضية، حيث نجد أنَّ عنوان هذا العمل يشير وبشكل مباشر إليها، في إشارة واضحة إلى أنه بدون هذه الجهود لم يكن لهذه القضية أن تخرج للعلن، بل ستبقى طي الكتمان، في بلدٍ لا يهتم بحقوق الإنسان، ولا بالجانب القيمي، مقتصرا فقط على الجانب المعيشي، والبحث عن المهنة والوظيفة.

في الجانب الآخر، نجد أنَّ الكثير من المبادرات الشخصية لبعض الصحفيين، الذي يتحملون المخاطر الكثيرة، ويتكبدون عناء الإنفاق المالي، والنفسي، والشخصي، في سبيل كشف بعض ملابسات هذه القضايا، في وقت يعج فيه العالم بجرائم القتل، والاختطاف، وغيرها، التي تتوجه بشكلٍ محدد إلى هذه الشركات الكبيرة، بهدف محاسبتها، وتقليم أظافرها، وتخفيف سلطتها على البشر.

الكتاب : فتاة من كاتمندو
المؤلف: كام سيمبسون
الناشر: Harper, 2018
عدد الصفحات: ٣٨٦
لغة الكتاب: الإنجليزية

*** كاتب عُماني**

قراءة مكيافيلي
جون ماك كورميك

وليد العبري *

إلى أي حد كان مكيافيلي نفسه مكيافيليا؟ أكان الرجل داعية بلا أخلاق إلى الطغيان؟ أم كان نصيرا للحرية بلا هوادة؟ أكان محللا لطبيعة السلطة السياسية أم كان رجلا وطنيا إيطاليا ورعا ومتحمسا؟ وهل كان مُحييا للفضيلة الوثنية أم كان مُدشّن عهد العدمية الحديثة؟ يحاول الكاتب جون مالك كورميك الخوض في هذه المشاكل الشائكة الدائرة على تأويلات مكيافيلي، وذلك من خلال إعادة قراءة أشهر أعماله: الأمير، والخطابات، والتواريخ الفلورنسية « مبرهنا على كتابات مكيافيلي » المعدودة بالمشاكسة، والتي قد انطوت على نزعة ديمقراطية شعبية.

ويشدد أستاذ العلوم السياسية والفلسفة السياسية الأمريكية ماك كورميك على أنّ جوامع سياسة مكيافيلي، غير معروفة أحيانًا، من قوله بفائدة صراع طبقي قوي بين النخب والمواطنين العاديين لبناء جمهوريات ديمقراطية فاضلة، ومن ذهابه إلى ضرورة المساواة السياسية والاقتصادية بغية تحقيق حرية مدنية حقة، ومن قوله بضرورة توظيف استعارات ومجازات دينية لممارسة حكم شعبي فعلي، كل ذلك قد أسيء تأويله في القراءات السائدة، وسيظهر المؤلف ذلك بكيفية تلقي تأويلات فكر مكيافيلي السياسية، وجعل النخبة تتآمر لإخفاء طابع الدعوة إلى المساواة في فكر الرجل وسياسته.

وبالجملة، الكتاب يعبر عن نقد مكيافيلي لدراسة مكيافيلي، وكأنّ بالمؤلف قد بعث مكيافيلي من قبره لكي يحاجج قراءة الذين اعتبرهم قراء مغرضين.

كما ناقش الكتاب تصوّر مكيافيلي للناس العاديين، هل هم جمهور قابل أو عرضة للإقناع والتلاعب، وذلك بواسطة «المظاهر والنتائج»؛ وبالتالي، كيف ينصح الأمراء أو الدول ذات الطابع الجمهوري بالتحفيز والتجنيد؛ ليكون بمثابة قوة سياسية هائلة ورواية تاريخية.

كما يوضح الكتاب بالمثل أفكار فلورنتين فيما يتعلق بمزايا وحدود الصراع الاجتماعي الشديد، بين عامة المواطنين، والنخب في السياسة الداخلية للجمهوريات الديمقراطية، خاصة حول مسألة إعادة التوزيع الاقتصادي. في الواقع، يتساءل البعض كيف قام مكيافيلي بإجراء تشخيص وتحليل عميق في احتمالية أنّ تزايد التفاوت الاجتماعي والاقتصادي يولد دائمًا فسادا سياسيا في جميع الجمهوريات - خاصة تلك التي تتبع إمبراطورية ما - وأكد كذلك على الترتيبات المؤسسية والدستورية.

ومن النماذج التي نوقشت في الديمقراطية المكيافيلية، على وجه التحديد، المحاكمات والاستفتاءات التشريعية والمحاكمات السياسية التي يُحكم عليها شعبيا، التي اعتقد مكيافيلي أنّها تفضي إلى حكومة شعبية جيدة التنظيم.

وللعلم فإنّ مكيافيلي عمل دبلوماسيا لمدة أربعة عشر عاما في جمهورية فلورنسا الإيطالية أثناء نفي عائلة ميديتشي الحاكمة، عندما عادت العائلة إلى السلطة في عام ألف وخمسمائة واثني عشر، تم طرد مكيافيلي وسجن لفترة وجيزة. ثم كتب "The Prince" وهو دليل للسياسيين على استخدام المكر وعدم الرحمة للوصول إلى أهدافهم، وسميت هذه النظرية «المكيافيلية» ولقب «أبو النظرية السياسية الحديثة».

كان نيكولو مكيافيلي سيضمن بلا شك شهرة دائمة لأي من الأدوار التي كان يؤديها ببراعة خلال حياته داخل وخارج عصر النهضة في فلورنس: دبلوماسي، استراتيجي عسكري، موظف مدني، شاعر، كاتب مسرحي. ومع ذلك، فقد اكتسب مكيافيلي شهرة أبدية، بصفته فيلسوفا سياسيا، من خلال إثارة العديد من الخلافات العلمية الأكثر حدة وإلهاما ببعض التغييرات السياسية الأكثر عمقا في التاريخ الغربي. ومن دون سبب، يعتبر الكثير من المعلقين أنّ مكيافيلي والد الفكر السياسي الحديث أو العلوم السياسية الحديثة - بل إنّ البعض يعتبره مؤسس «الحداثة» نفسها.

تحدّث الفصل الأول من الكتاب، عن شغف نيكولو مكيافيلي الديني، إذ أنه بعد خمس سنوات مروعة، لم يظهر أي إجماع حتى الآن على آراء نيكولو مكيافيلي الدينية. على الرغم من مواقفه السياسية المناهضة للكنيسة، إذ لا يزال العديد من العلماء يصرون على أنّ توجه مكيافيلي نحو الدين لا يزال إلى حد كبير في نطاق المسيحية الأرثوذكسية، أقل من الرغبة في القضاء على التدين من الوجود الإنساني وإقامة نظام عالمي ملحد. لا ينجز هذا الفصل إلا القليل لحل هذه القضية؛ إذ أنّه يستكشف فقط الطريقة التي يوظف مكيافيلي رمزية مسيحية في منعطفات حرجة من كتاب الأمير، على وجه التحديد.

وتحدث في هذا الفصل أيضًا عن المحافظة على ثراء الجمهور وفقر المواطنين، من حيث عدم المساواة الاقتصادية والفساد السياسي في الأزمات؛ لأنه ربما تكون عدم المساواة الاقتصادية أكبر تهديد للحرية المدنية التي تعدها الجمهوريات، القديمة والحديثة، لمواطنيها. وتعتمد الحرية أولا وقبل كل شيء على المساواة السياسية إذ يجب على كل مواطن التأثير على صنع القانون والسياسة بطريقة متساوية نسبيا مع الجميع، على الأقل، ويجب أن تكون الحكومة سريعة الاستجابة ومسؤولة أمام جميع المواطنين على قدم المساواة إلى حد ما. ومع ذلك، فإنّ الحرية السائدة في الجمهوريات تسمح دائما لأولئك المواطنين بتراكم مواردهم المادية بشكل أكبر، وعلى المدى الأطول، يعتبر رأس المال الثقافي للأفراد والأسرة، هي السمعة للاستمتاع بهذه المزايا على حساب المواطنين الأقل حظا. ببساطة، تحدث مكيافيلي عن أهمية المساواة بين الجميع لضمان احترام المواطنين للحكومة، ولضمان استمرار الحكومة في الرعاية.

كما تحدّث جون ماك كورميك عن أسطورة منعطف المحافظ في تاريخ فلورنسا، والتي أصبحت لاحقا فكرة الكتابات السياسية لنيكولو مكيافيلي، ولا سيما تاريخ فلورنتين أيضا، الذي تمّ نقله إلى المحافظ المطورة حديثا، وأصبحت اليوم رأيا مستقرا. حتى العديد من العلماء الذين يميلون إلى تحديد التفضيلات السياسية لوزيرة فلورنتين السابقة، كما ينعكس ذلك في كتاب "The Prince and the Doursesourses" ويستنتج الجانب الديمقراطي أكثر منه الأرستقراطي من الطيف السياسي للجمهورية، وقد أصبح المؤلف

أكثر نضجا من التاريخ، وقد غير آراءه بعدة طرق أساسية. الأهم من ذلك، أنّ مكيافيلي أصبح أكثر انتقادا إلى حد كبير من الشعوب المشتركة، وأكثر إعجابًا بالنخب، من كتاباته السابقة.

إنّ الصعوبات الكثيرة التي تطرحها نصوص مكيافيلي على المترجمين الفوريين، والتي بالطبع تفسر التساؤلات العديدة المتولدة على مر القرون، إذ تحاكي التحديات التي تطرحها الحقيقة السياسية الفعلية لكل من الحقائق النصيّة والعلمانية المركزية لمخاوف مكيافيلي، والتي لا يمكن القبض عليها إلا من خلال اكتشاف العديد من العناصر ومتابعتها وتحليلها بعمق كبير، وذلك من خلال كتاباته والتي عادة ما تكون مربكة، وتمر بالعديد من التقلبات، وينعطف في خلاف ذلك سرد مباشر، في التلميحات التوراتية والكلاسيكية والمعاصرة، ضمنية في بعض الأحيان وصريحة في أحيان أخرى. ومن المفاجآت في كثير من الأحيان من الإيجابية في الحديث إلى الحديث عن أمثلة سياسية سلبية، وصور عنيفة، تهدف إلى صدمة القراء. كما أنّه من الميزات أنّه يطرح تساؤلات تعين القارئ على تحليل ذلك المشهد والإجابة عن تلك الاستفسارات.

كما تحدث الفصل الثاني عن رفض جان جاك روسو لجمهورية مكيافيلي الرومانية الديمقراطية. وروسو فيلسوف وكاتب وملحن من مواليد سويسرا في القرن الثامن عشر، مكث في باريس واختار الكتابة في حياته المهنية، وعلى الرغم من اكتسابه الشهرة ككاتب ومؤلف في نهاية الثلاثينيات، إلا أنّه أطلق العديد من الأعمال اللاحقة مثل العقد الاجتماعي وإميل؛ وهذا ما جعله يحصل على مكانة في الأدب العالمي. قضى أيامه الأخيرة متنقلا من مكان إلى آخر، وفي وقت لاحق ألهمت أعماله أجيالا من الإصلاحيين لإحداث تغييرات في النظم السياسية لبلدانهم. ومع ذلك، في المراحل الحاسمة تمّ إهمالها في التأليف السياسي الكبير. يصف روسو في «العقد الاجتماعي» المؤسسات التي تمنع المشاركة السياسية للمواطنين العاديين والتي تمكنهم بدلا من تقييد صلاحيات النخب داخل الجمهوريات والحكومات الشعبية. يوضح هذا الفصل أنّ أجزاء كبيرة من العقد الاجتماعي المنقح للجمهورية الرومانية تعزز المؤسسات التي تعيق الجهود الشعبية، ومن الأمثلة على ذلك، المشاركة كمواطنين أحرار ومتساوين داخل الجمهوريات، وللحفاظ على الأثرياء من السيطرة على المجتمع، ولمنع القضاة من ممارسة السلطة السياسية المفرطة.

يشرح روسو نظريته حول الحرية والمساواة والحكم الجيد، وذلك من خلال مناقشة مستفيضة للمؤسسات والممارسات السياسية للجمهورية في روما. في حين أنّ المواطن يدافع عن النوايا الحسنة للجمهورية، فإنه يتنصل مباشرة من جوانب محددة من إعادة الإعمار الديمقراطي لوزير فلورنتين في الجمهورية الرومانية في الخطابات. وإنّي أزعم أن تحليل روسو وملاءمته للجمهورية الرومانية يقوض عمدا جهود مكيافيلي لإعادة بناء وتعزيز المؤسسات، التي تزيد من مشاركة المواطنين الفقراء في الحكومات الشعبية، وتسهل جهودهم للسيطرة على النخب الاقتصادية والسياسية.

إنّ مراجعة روسو الجذرية لتخصيص مكيافيلي للجمهورية الرومانية القديمة، اقترح تاريخيا، أنّها تمنع احتمال وجود حيلة بديلة قائمة على المشاركة الشعبية ومناهضة للنخبوية للجمهورية الحديثة، التي كانت ستخدم في القرون اللاحقة النظرية والممارسة الديمقراطية بشكل أفضل؛ وذلك من خلال نشر مبادئ مجهولة اجتماعيًا مثل العموم والسيادة الشعبية، وعن طريق حصر مساءلة النخبة في الانتخابات وحدها.

تتيح التحليلات والمقترحات المؤسسية لروسو للمواطنين والقضاة الأثرياء وتشجعهم على السيطرة على سياسات الحكومات الشعبية بشكل خفي وغير متاح.

كانت محكمة مكيافيلي هيئة قضائية دائمة مخصصة للمواطنين من عامة الشعب، والتي مكنتهم من الطعن في قوة وامتياز الطبقة العليا في مجلس الشيوخ في روما. من جانبه، يلقي روسو باللوم على وفاة الجمهورية وصعود الأباطرة على المحكمة الرومانية، وفي إعادة بنائه للقضاة؛ إذ يحيلها إلى وضع مؤقت ويحيد فائدتها للمواطنين.

ومن المواضيع التي تتطرق لها الكتاب، رأي ليو شتراوس في مكيافيلي؛ إذ أنّ ليو شتراوس فيلسوف أمريكي يهودي من أصل ألماني، يعده البعض الملهم لأيديولوجيا المحافظين الجدد التي تسود حاليا داخل الحزب الجمهوري الأمريكي، وهو مؤسس الفلسفة الباطنية. يبحث هذا الفصل في ارتباط ليو شتراوس بالعناصر الديمقراطية في الفكر السياسي لنيكولو مكيافيلي - على وجه التحديد - إذ أنّ رحيل مكيافيلي بذاته عن القدماء في تأييد الحكم السياسي ومشاركة الكثيرين على القلة وفي التوصية بالناس، بدلا من النبلاء، كأساس نهائي للسلطة السياسية.

وبما أنّ الكتاب تحدث عن رأي ليو شتراوس في مكيافيلي، فإنّه لم يغفل الحديث عن رأي فرانشسكو كيتشارديني أيضًا في نظرية نيكولو مكيافيلي، وهو يعتبر صديقا ومقربا جدا من مكيافيلي وفي نفس الوقت يعتبر أكبر النقاد له. كيتشارديني أحد الكتاب السياسيين الكبار في عصر النهضة الإيطالية، ويعتبر أبو التاريخ الحديث؛ وذلك بسبب أسلوبه في استخدام وثائق حكومية لدعم كتابه «تاريخ إيطاليا». وكان هذا العقل من أقوى عقول زمانه، لا يطيقه ذوقنا لإسرافه في سخريته، ولا يتفق مع آمالنا لإفراطه في تشاؤمه، ولكنه عقل نافذ كالضوء الكشاف يجوب أطراف السماء، صريح صراحة الكاتب الذي قرر بحكمته ألا ينشر ما يكتب إلا بعد وفاته.

وفي خلاصة القول، يزعم هذا الكتاب أنّ هؤلاء المؤرخين الفكريين المشهورين عالميا يحجبون جوانب مهمة من الفكر السياسي للجمهورية الميكيافيلية؛ وعلى وجه التحديد، يتجاهلون إلى حد كبير حقيقة أنّ الجمهوريات القديمة والحديثة تؤمّن المكانة المميزة للنخب أكثر من أنّها تسهل المشاركة السياسية للمواطنين.

الكتاب: قراءة مكيافيلي
المؤلف: جون ماك كورميك
دار النشر: منشورات جامعة برينستون
لغة النشر: اللغة الانجليزية
سنة النشر: ٢٠١٨م

*** كاتب عُماني**

"ألف كتاب وكتاب": آداب الشرق - شتيفان فايدنر

زهير سوكاح *

صدر في مستهل الدخول الثقافي الجديد بألمانيا كتاب جديد للمستعرب والمترجم الألماني شتيفان فايدنر (١٩٦٧) Stefan Weidner، المهتم بالثقافة العربية، ماضيها وحاضرها. الكتاب الصادر بداية شهر سبتمبر من هذه السنة عن دار نشر كونفيرسو Converso الألمانية يحمل عنوان: Buch. Die 1001 Literaturen des Orients «ألف كتاب وكتاب: آداب الشرق»، ينضم إلى سلسلة من الإصدارات الجادة في التعريف بالثقافة العربية وآدابها، بدأ بنشرها منذ منتصف تسعينيات القرن الماضي فايدنر أو «طائر محبة» كما يُطلق عليه المتابعون لمساره التقريبي بين حضارتي الشرق والغرب ولو من بوابة الأدب والترجمة.

عن آداب «الشرق» بروافده العربية والفارسية والتركية

يُعلن فايدنر عن مسعاه من نشر هذا الكتاب المكون من أكثر من أربعمائة صفحة، وهو جر اهتمام القارئ الألماني غير المتخصص إلى مدى حركية وتنوع آداب هذه المنطقة من العالم بلغاتها الأساسية العربية والفارسية والتركية. وبعيدا عن الأسلوب الاستشراقي التنميطي أو حتى العلمي الجاف، يرتحل بنا فايدنر، وكأنه على بساط أدبي طائر، بين عوالم الآدب الشرقية ومساراتها التاريخية منذ البدايات الأولى وإلى حاضرنا هذا وفي فصول سريعة متلاحقة، وبلغة رشيقة انتهجها في هذا الكتاب، الذي وصفه فايدنر، في لقاء إذاعي معه، بكونه جسرا بين العالمين الغربي والشرقي. في مقدمة الكتاب ينطلق فايدنر من التساؤل عن مفهوم «الشرق» Orient ليجد الإجابة في آداب الشرق بصيغة الجمع، ويقصد بذلك كلاً من الأدب العربي والفارسي والتركي إلى جانب الأدب الأفغاني، والتقاطع الحاصل بينها، دون أن يغفل هنا تداخل هذه الآداب الشرقية مع الآداب العالمية تأثرا وتأثيرا منذ النصوص القديمة وإلى نصوص الحداثة وما بعدها شاهدة بذلك على استمرارية اللغات الشرقية، التي تلج عصر ما بعد الاستعمار بخطوات مترددة. بعد هذه المقدمة فضل الكاتب، تقسيم كتابه إلى قسمين رئيسيين، قسم عن آداب الزمن القديم وآخر عن الزمن الجديد، يحتوي كليهما فصولا متنوعة.

عن الزمن الأدبي القديم

يتألف القسم الأول من الكتاب من ستة فصول، وهي كالتالي: الفصل الأول عن المصادر الدينية القديمة، والثاني عن النثر العربي الكلاسيكي، أما الثالث والرابع فعن الشعرين العربي، والفارسي على التوالي، والفصل الخامس عن عالم الخرافات والأساطير، والفصل الأخير من هذا القسم حول النصوص المعبرة عن الانتقال إلى الزمن الحديث:

في بداية هذا الفصل يقف فايدنر إذًا، ولو باقتضاب، عند البدايات السحيقة للأدب العربي ولاسيما عند الشعر العربي القديم ويعرج إلى الدور الأساسي الذي لعبه النص القرآني خاصة في «المعيرة» غير المسبوقة للغة العربية لتصير مع تعاقب الأزمنة لغة حاملة لأدب عريق وبخاصة بعد عقود من التدوين المتواصل، الذي شمل حتى أقدم الأشعار العربية المتناقلة شفاهة من جيل إلى جيل. هكذا يركز فايدنر حديثه عما أسميه بالعصر الكلاسيكي للأدب العربي، حيث يخصص له فصولا كاملة حول أجناسه ولاسيما الشعر العربي وتطور أغراضه، التي بلغت أوجها في الحقبة الأندلسية، إلى جانب هذا يتطرق الكاتب إلى الشعر الفارسي ذي النفس الصوفي، وطوبوغرافيته المتداخلة مع عالم الخرافة والأساطير بدءا من ألف ليلة وليلة ومرورا بكليلة ودمنة كنموذج للتمازج الحاصل آنذاك بين الأدبين العربي والفارسي. في هذا القسم يستعيد فايدنر أسماء من الذاكرة الحضارية للمنطقة مثل الهمداني والمعري وابن عربي وابن خلدون والغزالي وابن حزم صاحب طوق الحمامة، هذا إلى

جانب أسماء فارسية مثل الفردوسي والسعدي والرومي وأيضا حافظ، صاحب التأثير الكبير على كل من الأديبين الألمانيين غوته وهاينه. وهنا يختم الكاتب هذا القسم بالحديث أيضا عن الأدب المكتوب باللغة العثمانية وتطوره صوب العصر الحديث وصولا إلى القطيعة اللغوية شبه النهائية مع هذا الأدب العريق، التي أحدثها استبدال اللغة العثمانية بلغة تركية معاصرة، وإحلال الحرف اللاتيني مكان الحرف العربي إلى غير رجعة.

عن الزمن الأدبي الحديث

أما القسم الثاني من الكتاب حول الزمن الحديث فقد قسمه فايدنر إلى خمس فصول، وهي كالتالي: الفصل الأول عن الحداثة، والثاني عن مرحلة ما بعد الحداثة، أما الفصل الثالث فعن الأدب النسائي، والرابع عن أدب مرحلة ما بعد الاستعمار، والفصل الخامس عن أدب مرحلة ثورات الربيع العربي وما بعدها: في هذا القسم يفتتح فايدنر الفصل الأول بالتطرق إلى الحداثة في سياقها الشرقي مبتدئا برواد الحداثة الأدبية التركية وعلى رأسهم ناظم حكمت وأحمد حمدي طانبينار، منتقلا بعد ذلك الى الشعر الحداثي في إيران ورواده، مثل صادق هدايت وشاعرة المرأة الإيرانية ناهد كبيري وغيرهما، مشيرا في نفس الوقت إلى أهم الأنطولوجيات الألمانية عن الشعر الفارسي المعاصر، ليصل وكأنه على بساط ريح أدبي إلى الشعر العربي الحديث، حيث يقدم بورتريهات عن كل من أدونيس ودرويش دونما أن يغفل الحديث في نفس الوقت عن رواد الأدب الحداثي في المنطقة العربية، مثل نجيب محفوظ وإدوارد الخراط وعبد الرحمن منيف والطيب صالح وإبراهيم الكوني. يستمر فايدنر في رحلته الزمكانية بين الآداب الشرقية ليصل في الفصل الثاني إلى نصوص ما بعد الحداثة، ليقدم للقارئ الألماني بورتريهات للنصوص الأدبية المؤثرة والمعبرة في نفس الوقت عن هذه المحطة المعاصرة من التاريخ الأدبي للمنطقة وتشابك هاته النصوص مع الأسئلة الاجتماعية المؤرقة، حيث يختار التعريف بنماذج من نصوص أدبية تركية تتعاطى مع فترة حكم أردوغان المستمرة إلى يومنا هذا، مثل نصوص أورهان باموك. أيضا في هذا الفصل يخصص فايدنر صفحات للإشارة إلى أدباء المهجر الأوروبي، مثل علي بختيار صاحب الرواية الشهيرة «رمانة العالم الأخيرة»، ومن قبله الكاتب العراقي فاضل العزاوي. أما الفصل الموالي فيخصصه الكاتب للحديث عن أهم الشواعر العربيات المعاصرات أو «وريثات الخنساء» كما سماهن، حيث يقدم بورتريهات عن الشعر النسائي الراهن ورموزه. أكثر من هذا يحدثنا فايدنر في هذا الفصل أيضا عما يعتبره بالأدب النسائي الفضائحي في المنطقة العربية، منتقلا في الفصل الموالي إلى التعريف بكتابات أدباء من أصول عربية أبدعوا على المستوى العالمي بلغات غربية، ولاسيما الفرنسية والإنجليزية، مثل وآسية جبار والطاهر بن جلون إضافة إلى أدباء من أصول باكستانية وأفغانية، مثل عاتق رحيمي وجميل أحمد وخالد حسيني. أما الفصل الأخير فقد قدم فيه الكاتب صورة متكاملة إلى حد بعيد عن المشهد الأدبي الحالي، ولاسيما في المنطقة العربية بعد ثورات الربيع العربي مستعينا بنماذج نصية مقتضبة لكنها معبرة عن كنه هاته المرحلة، مثل كتابات علاء الأسواني وهشام مطر وديمة ونوس ونجم والي وغيرهم.

احتفاء غربي بآداب الشرق

في خضم ما تواجهه الإنتاجات الأدبية والفكرية في هذه المنطقة من العالم، سواء القديم منها أو الحديث، من أحكام مجحفة بحقها من كونها آدابا متخلفة عن الركب الثقافي الدولي، يقدم الكتاب بكيفية مشوقة صورة بانورامية تكاد تكون متكاملة ليس فقط عن تاريخ الآداب الشرقية بصيغتها الجمعية، بل عن مدى تنوع وحيوية هاته الآداب كمحصلة لتفاعل فايدنر الشخصي مع المئات من نصوصها منذ أزيد من خمس وعشرين سنة بروافدها العربية والفارسية والتركية، كما يشير إلى ذلك بنفسه في خاتمة كتابه المقتضبة. في المحصلة، يمكننا القول إنّ هذا الكتاب الجديد لفايدنر، هو احتفاء غربي قل نظيره في زمننا هذا بآداب هاته المنطقة ذات العمق الحضاري المشرق، رغم حاضرها الملتبس.

الكتاب: "ألف كتاب وكتاب": آداب الشرق 1001 Buch. Die Literaturen des Orients
الكاتب: شتيفان فايدنر Stefan Weidner
الناشر: دار كونفيرسو Converso الألمانية
عدد الصفحات: ٤٣٢
سنة النشر: ٢٠١٩

*(كاتب وباحث مغربي مقيم في ألمانيا)

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي):

الكتاب: أفضل الممارسات لحكامة المؤسسات
المؤلف: بيتر ويرتز
الناشر: دار لاديكوفيرت. فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ١٢٨ ص
اللغة: الفرنسية.

منذ بداية التسعينيات، كانت مُمارسات حكامة المؤسسات والشركات (أداء مجلس الإدارة، استقلالية المديرين، إنشاء لجان التدقيق والتعويض، وما إلى ذلك) موضوع العديد من المحاولات الدراسية والتحليل والتطبيق. نظرًا للفضائح المالية المتكررة، يحق للمراقب المتخصص أن يشكك في طبيعة وقيمة التوصيات المقدمة في مدونات قواعد السلوك، والتي "تُباع" غالبًا ككتالوجات عن "أفضل الممارسات".
هل توجد بالفعل "أفضل الممارسات" لحكامة الشركات؟ بم يتعلق الأمر؟ ما هي الحجج التي من المرجح أن تستند إلى تعريف "الأفضل"؟ من يضع القواعد ومن يروج لها؟ ما هي شرعيتهم؟ كيف تنسجم مع قانون وممارسة الشركات؟ ما هي أهمية التوصيات الحالية بشأن "أفضل ممارسات" الحكامة؟ هل يمكن أن تتطور إلى مفهوم جديد؟
تجدون الكثير من الأسئلة والأجوبة التي يُقدمها هذا الكتاب الهام والضروري لكل الشركات والمؤسسات الراغبة في حكامة جيدة ومردودية عالية ومتواصلة.

الكتاب: النكران والغفران
المؤلف: جاك دريدا
الناشر: دار سوي.فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٤٣٢ ص
اللغة: الفرنسية.

يعرض جاك دريدا هنا عناصر من التأمل الأصلي العميق حول الغفران اللامشروط، وهو مفهوم لا يمكن الخلط بينه وبين العذر أو العفو أو إسقاط الحق أو الصفح، إذا كان التسامح موروثا من تقاليد مختلفة (اليهودية والمسيحية، والإسلام والفلسفة اليونانية)، فلا يمكن اختزاله: فهي تتجاوز، على سبيل المثال، طرائق "الفهم" للذاكرة والنسيان كنوع معين من الحداد أيضاً غير المتجانس مع الظواهر وتجسدها في الواقع، بل تتجاوز اللغة اللفظية نفسها، التي تلغي مثل "عاصفة عنيفة"، التاريخ والقانون والسياسة. كما يقول فالتر بنيامين.
الغفران اللامشروط هو اختبار المستحيل: ولهذا السبب يجب أن تظل استثنائية، دون حساب أو غائية، بعيدا عن أي تبادل وأي معاملة، يمر المسار الذي رسمه دريدا عبر هذه المحاضرة المذهلة من خلال قراءة أعمال يانكيفيتش حول المغفرة والتسامح، وكانط حول حق الصفح، وخلال النصوص التوراتية واليونانية، والأعمال الأدبية لشكسبير، وكيغركغراد وبودلير وكافكا وأغوستين وروسو، وكذلك عن طريق تحليل مشاهد الاعتراف والندم التي انتشرت في الأماكن العامة، في فرنسا وأماكن أخرى، في أواخر التسعينيات (محاكمة موريس بابون، خلال نهاية نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، العذر العلني لرئيس الجمهورية الألمانية حول مذبحة غيرنيكا، إلخ).
هذا المجلد الأول من ندوة النكران والتسامح وهو جزء من سلسلة "أسئلة المسؤولية" التي قدمها جاك دريدا في كلية الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية من ١٩٩١ إلى ٢٠٠٣، بعد موضوعاته عن السرية، والشهادة والضيافة، اقترب دريدا في ١٩٩٧–١٩٩٨ من فكرة النكران من خلال ربط هذه التجربة من النكران والشر بالمغفرة والتسامح.

الكتاب: فن أن تكون سعيدا.
المؤلف: أرثور شوبنهاور
الناشر: دار سوي. فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ١٤٤ ص
اللغة: الفرنسية.

هذا المجلد هو أطروحة صغيرة من الحكمة العملية لتحقيق السعادة. كيف قام سيد التشاؤم الحديث آرثور شوبنهاور(١٧٨٨– ١٨٦٠) بمثل هذه المغامرة؟ بكل بساطة يجيب شوبنهاور، لأن الفلسفة النظرية شيء، والحكمة المعاشة شيئ آخر: يجب ألا نتخلى عن الأمل ونحرم أنفسنا من الحكمة والمشورة لمواجهة الصعوبات الكثيرة. الاعتقاد المتشائم بأن حياة الإنسان تتأرجح بين الألم والملل تدعو إلى استعمال الوعي والبصيرة للعيش في أحسن الأحوال. من المهم إيجاد قواعد للحياة لدرء آلام الوجود، ولتحمل نكبات القدر، للوصول، إن لم تكن السعادة الكاملة، فعلى الأقل تحقيق سعادة نسبية، والتي لا تكون إلا في حالة غياب المعاناة.

الكتاب: ضد الكراهية
المؤلف: كارولين إيمكيه
الناشر: دار سوي .فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٢٢٤ ص
اللغة: الفرنسية.
يكشف هذا الكتاب عن السياقات التي تشرح الكراهية العنصرية للأجانب والكراهية الاجتماعية والجنسية داخل المجتمعات. تدرس المفكرة الألمانية كارولين إمكيه الصيرورات الخفية التي تُشكّل السلوكات الفردية والجماعية البغيضة، من أجل تفكيك الافتراضات النظرية المسبقة للكراهية بشكل أفضل: تجنيس الهويات، والرغبة في التجانس وثقافة العرق الخالص. وبذلك تتم استعادة القضايا الأساسية المتعلقة بمستقبل الديمقراطية في غمار العولمة والحرب والحقوق المدنية وإخضاعها لمنطق التجربة. لذلك لا يُنظر إلى الكراهية أبدًا على أنها مفهوم مجرد، ولكن كإمكانية منفتحة بواسطة الحداثة التي تساهم بدورها في ترسيخ وتكرار دوافع الكراهية في كل المجتمعات وفي كل زمان ومكان.

آخر الإصدارات الفلسفية في اللغة الإنجليزية (محمد الشيخ):

عنوان الكتاب: هل نحن أجساد أم أرواح؟
اسم المؤلف: ريتشارد سوينبورن
دار النشر: مطبعة جامعة أوكسفورد
سنة النشر: ٢٠١٩
يعد ريتشارد سوينبورن من أبرز فلاسفة الدين والعلم الإنجليز في زمننا هذا. اشتهر بعدة كتب كان لها وقع في فلسفة الدين المعاصرة، شأن "وجود الله" (١٩٧٩ و٢٠٠٤) و"الإيمان والعقل" (١٩٨١ و٢٠٠٥) و"القدر ومسألة الشر" (١٩٩٨) و"الوحي" (٢٠٠٧) و"اتساق المذهب الربوبي" (٢٠١٦) ...وقد اهتم المؤلف منذ الثمانينات من القرن الماضي بالعلاقة بين الجسد والذهن، وكتب في ذلك كتابات، وها هو يعود اليوم إلى نفس الموضوع، لكن

إصدارات عالمية جديدة

بنفس جديد، من هم البشر على التحقيق؟ وما الذي يجعل منهم ما هم عليه من بشرية على التدقيق؟ يعتقد العديد من المفكرين أن البشر ما كانوا سوى آلات شديدة التعقيد، أو حيوانات لا تختلف عن الآلات اللهم إلا بالشعور. لكن سوينبورن يواجهنا بسؤال: أنحن أجساد حقا أم نحن أرواح بالأولى؟ وهو يميل إلى الدفاع عن الخيار الثاني مقدما حججا فلسفية يدعمها علم الأعصاب الحديث، ذلك أنه إذ صار بمكنة علم جراحة الدماغ اليوم أن ينقل أجزاء من دماغ بشر إلى آخر، ما عاد ثمة من شك أن في ذلك دلالة على أننا شيء أكثر من مجرد قطع عضوية، وإلا لما صار الإنسان المريض ما كان عليه في الماضي، ولفقد آنها هويته وما عقل نفسه. ويلزم عن هذا، حسب ما ينتهي إليه فيلسوف الدين، أننا أرواح غير مادية تقوم دعامة وجودها الدنيوي على دماغ عضوي، وما المشاعر والأفكار والمقاصد سوى أحداث شعورية تحدث في أرواحنا، وهي من يحدث بدوره أمورا في أدمغتنا، ومن ثم كانت فرادة كل إنسان، وهذه الفرادة هي ما يشكل، في النهاية، ما نحن إياه.

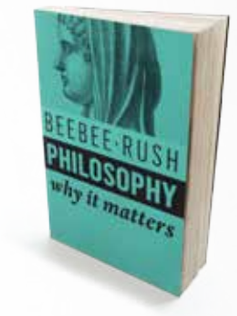

عنوان الكتاب: الفلسفة: لماذا هي مهمة؟
اسم المؤلف: هلين بيبي ومايكل راش
دار النشر: مطبعة بوليتاي
سنة النشر: ٢٠١٩

في عصر صارت فيه أعيننا مفتوحة طيلة الوقت وآذاننا مشرعة على هواتفنا النقالة، ما الذي يمكن أن تفيدنا الفلسفة إياه؟ وأول شيء يتبادر إلى ذهننا إنما هو خلافاتنا التي لا تكاد تنتهي حول قضايا ذات أهمية بالنسبة إلينا: هل الله موجود؟ هل يمكن الثقة بآخر اكتشافات العلم؟ أثمة فوارق فطرية بين الرجال والنساء؟ يتكون هذا الكتاب من أربعة فصول مفيدة ومسلية في الآن نفسه يوضح فيها المؤلفان دور الفلسفة في الجواب عن مثل هذه التساؤلات. وهما يطرحان مسألة ما الذي يجعل من الإنسان إنسانا، وما قواعد وآداب المناظرة بيننا في المجال العمومي، وما علاقة الفلسفة بالعلم وبالدين، وما طبيعة خياراتنا الأخلاقية. ويوضح المؤلفان أن الفلسفة ما كانت مجرد تأملات نظرية مجردة في قضايا لا تكاد تهم إلا المتخصصين، وإنما ما فتئ الفلاسفة يستمدون أمثلتهم من الواقع المعيش ومن المواقف الصعبة والمفارقة والمأساوية التي لطالما وجدنا أنفسنا نحيا فيها. إنما الفلسفة، في كنهها، أمر يتعلق بطرح السؤال: كيف نحيا وكيف نعطي معنى للعالم الذي نقطنه. فهي، إذن، جملة أدوات وتقنيات وآليات الشأن فيها أنها تقدرنا على النظر بوضوح في حججنا وفي شبهنا، وتمكننا من أن نكشف ادعاء الآخرين ومن أن نفضح شبههم، وذلك بما يسمح لنا أن نختار الاختيار الواعي حين لا نكون على بينة من أمرنا؛ لا سيما في أمر ما الذي ينبغي أن نؤمن به وفي شأن كيف يلزم أن نسلك. ومن ثمة توجد الفلسفة في كل مكان، وهي أمر متاح للجميع مبذول له.

عنوان الكتاب: لاهوت الليبرالية (الفلسفة السياسية وعدالة الإله)
اسم المؤلف: إريك نيلسون
دار النشر: مطبعة جامعة هارفارد
سنة النشر: ٢٠١٩

عادة ما يتم النظر إلى الليبرالية بوصفها فلسفة دنيوية محضة، بزغت بزوغها المدوي لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية؛ لكن المؤلف إريك نيلسون يدافع عن فكرة أن من الخطأ اعتبار الليبرالية بوفق هذا الاعتبار الذي يقطعها عن جذورها. ذلك أن الليبرالية ما كانت وليدة اليوم، لا ولا كانت هي سليلة نظرية راولز الشهيرة، وإنما حقيقة أمرها أنها مستملاة من نقاشات لاهوتية قديمة حول العدل والشر: هل نحن مسؤولون أخلاقيا عن أفعالنا وخياراتنا، وذلك حتى وإن نتج عنها الظلم وعدم المساواة؟ وهل من العدالة الربانية في شيء ـ ونحن تصور الله عادلا ـ أن يحدث الظلم في هذا العالم المخلوق؟ أم أن ثمة عدم تناغم بين فكرة إله عادل وفكرة عالم متروك نهبة للظلم؟ ولقد كانت طائفة مسيحية منبوذة ومتهمة بالهرطقة قد أجابت عن ذلك بالسلب؛ إذ رأت أنه لا يمكن للكائنات البشرية أن تكون مخلوقة من لدن الرب ومحاسبة في اليوم الآخر عدا كائنات قادرة على الحرية وعلى الاستحقاق. ويظهر المؤلف أن ليبرالية راولز إنما قامت في تحاور ـ وأحيانا نقد ـ لهذه النزعة؛ وذلك بما يشي عن الجذور اللاهوتية لليبرالية.

آخر الإصدارات في اللغة الإيطالية (عز الدين عناية):

الكتاب: كفرة.. المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي.
تأليف: برتوليميو بيرونيه.
الناشر: منشورات تيرا سانتا (ميلانو) "باللغة الإيطالية".
سنة النشر: ٢٠١٩.
عدد الصفحات: ٣٨٤ ص.

يحاول الكتاب أن يقدّم صورة شاملة عن المسيحيين العرب في ظل الحكم الإسلامي من البدايات إلى الراهن. لكن تلك الصورة تبقى محكومة بما يطلبه السوق، لا بما يقتضيه البحث العلمي الرصين والهادئ. ينحاز الكاتب برتوليميو بيرونيه، بشكل فجّ وفاضح، في عرض تاريخ المسيحيين العرب إلى وجهة نظر غربية مغرضة، فيحوّل كتابة التاريخ إلى تصفية حسابات تفتقر إلى الموضوعية والرصانة.

الكتاب: إسرائيل والإسلام.
تأليف: بييترو شيتاتي.
الناشر: منشورات جونتي (فلورانسا) "باللغة الإيطالية".
سنة النشر: ٢٠١٩.
عدد الصفحات: ٢٨٨ ص.

يحضر بنو إسرائيل في القرآن الكريم بشكل لافت على مستوى ديني وعلى مستوى تاريخي. يحاول الكاتب أن يعيد النظر في تلك العلاقات التأسيسية التي شكلت المخيال الجامع للمسلمين واليهود، وبعيدا عن التوتر الحاصل اليوم، بفعل الصراع العربي الإسرائيلي، يستعيد الكتاب ذلك التقارب الديني، التشريعي والعقائدي بين أتباع الدينين، معتمدا في ذلك بالأساس المدونات التاريخية الإسلامية الكلاسيكية.

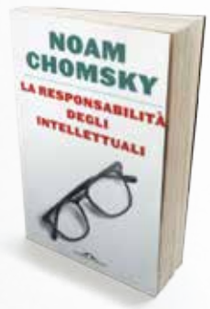

الكتاب: مسؤولية المثقفين.
تأليف: نعوم تشومسكي.
الناشر: منشورات بونتي ألّلي غراسيي (ميلانو) "باللغة الإيطالية".
سنة النشر: ٢٠١٩.
عدد الصفحات: ١٢٧ ص.

يُعيد المفكر نعوم تشومسكي رسم ملامح العلاقة الشائكة بين المثقف والسلطة. فهناك مسؤولية أخلاقية ترافق المثقف وتملي عليه التسامي والصدق والالتزام، لكن تلك المسؤولية غالبا ما تصطدم بعراقيل قاهرة، صراع القدر ذاك الذي يطبع العامل في الحقل الثقافي، هو ما يشكل تاريخ المثقف الحقيقي، فكيف تكون الثقافة في خدمة الإنسان وبمنأى عن التورط في الزبونية والتزييف والتبرير؟ ذلك ما يحاول الكتاب تحليله بوضوح وعمق.

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.
مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ – ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net